

مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٤

تصـــــدير

كنا نشرنا حوالى سنة ١٩٢٢ مقالات مختلفة فى " السياسة الأسبوعية " عن البارودى ، ونشرنا قبـل ذلك محاضرة عن إسماعيل صـبرى وشعره ، وقـد ظهر البحثان فيما بعد فى كتاب (أدب وتاريخ) الذى طبع بمطبعة دار الكتب المصرية فى سنة ١٩٢٧

وكنا سنواصل هـذه الأبحاث لولا انقطاعنا للتاريخ وقيام العوائق ، وها نحن أولاء نعود إلى الأدب ونقف فى ظله ساعة وقفـة السائح المهجّر الذى يُعرض له فى الطريق شجرة ضافيـة وعين ماء أو بلد جديد تتلألأ على وجوه منـازله وسمائه نضرة الحياة وابتسامتها وبرطب العيش فى حنايا وجواء بيوته .

وإنا نبـدأ سلسلة (الشوامخ) بامرئ القيس ، وسيتلوه باذن الله أبو عبـادة البحترى . أما نهج البحث فنترك الحكم عليه للقارئ ، وكل ما نرجوه أن نكون قد وفقنا بعض التوفيق فى إظهار شخصية عاهل الشعر الأوّل فى ضوء جديد يكشف من ناحية عن الصلة التى تربط بينه وبين صحراء العرب وجاهليتها وشـعرها ، ومن ناحية أخرى ، عن الصلة التى تربط بينـه وبين شعراء الأفرنج الذين ملأوا الدنيا تغـريدا ، وهفوا على كل أيكة وفنن ، وأصبح تطريبهم سـلوة المحزون ، وعزاء للانسانية البائسة ، وراحة المتعب ، ونفثة المصدور .

وسيرى القارئ كيف يتعانق الخيالان فى سماء واحدة يتحدر منها النور والجمال .

الفصل الأول

تمهيـــد

شاعر متبدٍّ له رقة الحضر، متحضِّر له خشونة البدو وحماستهم، وهو ابن ملك، ولوع بالصيد، يزجر طير الخيال، ويتعقب آرام البادية ونساءها، بين أوديتها ونجادها، وجبالها ووهادها، بين مائها ومرعاها، وصباها وجنوبها، وريحها ومطرها، وبروقها الخافقة وسيوفها اللامعة، بين عرار نجدها وخزاماه، وشيح تهامتها وقيصومها، بين كثبانها وأغوارها، وسيولها وجداولها، وظلال شجرها، ولفحات هجيرها، بين شائها ونعمها، وذؤبانها الطُّلس، وعقبانها ونسورها الخاطفة، بين شظف العيش فى الوبر والمدر وطراوته لدى برد الظل والماء وبهجة النخيل، بين خيام العرب وأحيائها ومنازلها وظُعُنها، بين خيولها الرامحة وجمالها المتبخترة كالسفين.

وبين هذا وذاك، شعب متقلب فى خلقه وطبيعته، كثير التنقل والترحال؛ يتتبع مواقع الغيث طلبا للنجعة حيث يصيب رزقه ويرعى بنجد ويشرب بتهامة، مرهف الحس والإحساس، حديد البصر، أحمس، فخور هدَّار، يقنع بتمرة وجرعة من الماء أو اللبن ولكن غذاءه الأول وشغله الشاغل الحب والحرب والشعر، واسع الخيال قوى الإدراك والفطنة سريع النجدة، سيد قومه فى نخوته وشهامته، ميال إلى النزاع والتقاضى والأخذ بالثأر، إذا سكن الريف نزعت نفسه القلقة إلى " الثورة " وركوب متن الريح فى البوادى، حب التفرد متمكن من نفسه

أكثر من حب الجماعة وروح الهدم عنده أكبر سلطانا وأبعد أثرا من روح البناء، نفس جياشة كالبحر تعصف بها أقوى العواطف البشرية، إذا صفت سمت إلى أعلى عليين وأتت بالمعجز وإذا كدرت هوت إلى الحضيض وظهرت بوجه ملطخ بدماء المساكين ، ولو قدر للفرنسيين الذين قاموا بأكبر ثورة سياسية فى التاريخ الحديث أن يعيشوا فى البادية طويلا ، أو قدر للعرب الذين قاموا بأكبر ثورة دينية عمرانية فى التاريخ القديم أن يوطدوا ملكهم الضخم لتجلى وجه الشبه بين الأمتين .

* * *

فى هذه البيئة وفى بيت الملك نشأ امرؤ القيس ، الملك الضليل ، وقد اعترفت الأجيال وشيوخ الأدب بعظمته وأجمعوا عليها وإن لم يفهموها كل الفهم ، ذلك أن امرأ القيس مَثَله مثل الجبل يحس كل النظار بعظمته ولكن إدراك دقائق هذه الروعة وذاك الجلال ، وبالتالى التغلغل فى نواحى تلك العظمة وأسرارها ، والتوغل فى تلك الهيولى توغل العابد وفهم كنهها من شأن أهل الذوق والفن وحدهم .

ومن أجل ذلك أقر الأدباء والنقاد من قديم الزمان بأولية امرئ القيس ومعلقته . ولكن لم يكشف لنا واحد منهم عن حقيقة هذه الأولية بطريقة شافية تروى النفوس ، وقد عنى أكثرهم ، ببعض نواحيه اللغوية وحسن استعاراته من (بيضة خدر) و (قيد الأوابد) وغير ذلك من ضروب (البلاغة) التى هى (فقه الشعر) . أما نواحى الوصف والتصوير التى هى لباب البلاغة فقد غابت عنهم أو بعبارة أخرى عنوا بالجسم أو بالوشى الذى يغطيه وأهملوا الروح .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ؛ فإن الناحية اللغوية نفسها لم توف حقها أن امرأ القيس من أهم مصادر لغة العرب وعليه وعلى رؤبة وذى الرمة ونابغة ذبيان وغيرهم اعتمد ابن منظور، بل إلى امرئ القيس وأضرابه، أى إلى الأصول يجب الرجوع بلغتنا وآدابنا لتستمد قوتها وبهاءها من ذلك النبع الصافى الأول .

ورحم الله البارودى الذى كان يقول فى كلمة جامعة : "يجب أن تنحت شعرنا من صخرة الشعر القديم" . وقد فطنت إلى ذلك الأمم الأوروبية التى تدرس اللاتينية واليونانية، ولا تزال الأمم الحية تجد مادتها ووسائل تعهد حضارتها فى ذلك الصخر الذى يتفجر بالماء الزلال .

وإذا قلنا النبع الصافى الأول فذلك لأن المدنية لم تمكن فى ذلك العهد من إقامة الحواجز من سقوف وأبنية وضجيج وأضواء أمام النظر والحس والخيال فكان الشاعر البدوى يطلق البيت والبيتين "كما يطلق زوجى الطائر" فى الفضاء الرحب، وكان شعره يغرد فى آفاق الطبيعة من غير قيد، بل كان ذلك البدوى الذى تكشف خروق الثوب عن جسمه النحيف يرتجل الشعر والممالك ارتجالا ويقيم ويقعد على ظهر جواده الطِّمِر .

وقد كان المرحوم إسماعيل باشا صبرى يقول إن الشعر العربى يمتاز على الشعر الإفرنجى بمقطعاته ، أى بالبيت والبيتين والثلاثة ، لا بمطولاته ، وقد جرت لهم فى الحكمة والحب والتصوير أبيات بلغت فى علوها أعلى سماوات الحسن والجمال، وحسبنا أن نذكر تلك الحقيقة الكبرى الماثلة فى هذا البيت : —

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

وقد نظر صاحبه إلى قول امرئ القيس :

ألا كل شيء سواه جلل *

وقد اتفقت الأديان والفلسفات على أن البر خير الأعمال في هذه الحياة الدنيا فقال امرؤ القيس : "والبر خير حقيبة الرحل" .

وهل صوّر أحد الإنسان كما صوّرته بعض الكتب السماوية بقولها : "إن الإنسان ذئب للانسان" فقال الأعرابي :

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطير

وهل صوّر أحد الحياة والموت واستعرضهما يتذكر الماضين الأولين مثل قس ابن ساعدة بقوله :

شخصت على بعد النوى أشخاصهم فرأيتهم الأوطام كالأشباح[1]

أما الحب فقد ضرب شعراء الجاهلية فيه على كل وتر ولم يتركوا للناس [illegible] بين (قفا نبك) و (صبا نجد) .

وقد اتفق رواة الشعر على أن أصدق الشعر [illegible] هو ذلك الشعر الغنائي القديم الذي [illegible] أن الذي قال (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) [illegible] هو صنو هوميروس وشكسبير في علو النفس وصفاء الخيال .

---

(١) شخص الشيء شخوصا : ارتفع . وشخص من بلد إلى بلد : ذهب . وشخص [illegible] : سار في ارتفاع . وشخص السهم : ارتفع عن الهدف .

الفصل الثانى

حياة الشاعر وشخصيته

الشاعر العظيم هبة الطبيعة ، وقد تجلت شخصية امرئ القيس فى حياته وشعره ، وإن الناظر الى شعره يرى طابع شخصيته بوضوح ، ولذلك ترى معلقته تقف بين المعلقات الأخرى وقوف البناء المشمخر بين الأبنية الصغرى ، وقد تجد فى معلقة زهير (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم) أبياتا من روائع الشعر كقوله :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة	يُضَرَّس بأنياب ويُوطأ بمَنْسِم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه	يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة	وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وكائن ترى من صامت لك معجب	زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصفٌ ونصف فؤاده	فلم تبق إلا صورة اللحم والدم

ولكن هذه القصيدة وغيرها تذكو كالجمر وسرعان ما تخبو ، وإن شئت فقل إنها لا تترك فى النفس ذلك الدوى الذى يتركه شعر امرئ القيس لأن النفس يختلف اتساعا وعلوا ، ولا يكاد امرؤ القيس يضرب على وتر حتى تحدث فى النفس تلك الهزة التى تتجاوب أصداؤها وتستولى على المرء ووجدانه على مدى الزمن .

ولعل أعلى الشعراء نفسا فى الجاهلية بعد امرئ القيس وأكثرهم سموا هو عدى ابن زيد الذى يقول :

رب قوم قد أناخوا حولنا	يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا	وكذاك الدهر حالا بعد حال

على أن آيته التي يفخر بها الشعر العربي رائيته التي قالها في سجن المنذرين الحيرة :

أيها الشامت المعيِّر بالدهـ … ـر أأنت المبرأ الموفور

أم لديك العهد الوثيق من الأيـ … ـام بل أنت جاهل مغرور

من رأيت المنون خلّدن أم من … ذا عليه من أن يضام خفير

أين كسرى كسرى الملوك أنوشر … وان أم أين قبله سابور

وبنو الأصفر الكرام ملوك الرو … م لم يبق منهم مذكور

وتذكر رب الخورنق إذ أشـ … ـرف يوما وللهدى تفكير

سره حاله وكثرة ما يمـ … ـلك والبحر مُعْرِضًا[1] والسدير

فارعوى قلبه فقال وما غبـ … ـطة حي الى الممات يصير

ثم بعد الفلاح والملك والإمّـ … ـة[2] وارتهم هناك القبور

ثم أضحوا كأنهم ورق جـ … ـف فألوت به الصّبا والدبور

وقد لاحظ بعض النقاد أن البيت الأخير رائع في تصويره :

ثم أضحوا كأنهم ورق جـ … ـف فألوت به الصبا والدبور

ولكن أروع منه فيما اعتقد ذلك البيت الذي تختلف روايته بعض الاختلاف :

فارعوى صاحبي فقيل وما حيـ … ـلة حي الى الممات يصير

وقد كان غناء عديّ بن زيد على حدّ قول مطران في أحد الشعراء "بيتا من الشعر — وكان الأنين فيه الرَّوِيّا" وهو وإن كانت تنقصه عظمة الجبل عند

---

(١) أعرض الشيء : ظهر وبرز . تقول : عرضته فأعرض ، أي أظهرته فظهر . وبرز : مثل كببته فأكب ؛ وهما من النوادر كقوله : «وأعرضت اليمامة واشمخرت» ، أي ظهرت ولاثالث لهما ، ويقال : أعرض لك الظبي فارمه ، أي أمكنك من عرضه (بضم العين) . وأعرض ثوب الملبس : اتسع وعرض .

(٢) الإمة : النعمة .

غروب الشمس وانتشار السكون فى أعالى القرى فلم تفته روعة السهل عند تساقط أوراق الخريف ، وكلا الشاعرين ، امرئ القيس وعدى ، وان تفاوتت شخصيتهما ، محزون النفس ينضح بمرارة العيش والتجارب وتقلب الناس والأيام .

وقد أضيف الى امرئ القيس شعر كثير منحول ركيك لا ينتظم مع نفس الشاعر وطريقته كما ضاع الكثير منه ، ولعل سبب ضياع بعضه أو إهماله يرجع الى عدم تمشيه مع ذوق المتأخرين ، لأن امرأ القيس كان من المجددين وفى ذلك مظهر من أكبر مظاهر شخصيته ، وقد وجد بعض هذا الشعر ولكنه بقى نسيا منسيا فى عداد الشعر المنحول .

كتب أحد طابعى ديوانه فى العهد الأخير : ومن منحول ما يروى له قوله :

« قالت الخنساء لما جئتها شاب بعدى رأس هذا واشتهب »
« عهدتنى ناشئا ذا غرة رجل الجمة ذا بطن أقب »
« أتبع الولدان أرخى مئزرى ابن عشر ذا قريط من ذهب »
« وهى إذ ذاك عليها مئزر ولها بيت جوار من لعب »

يقول قالت امرأة اسمها الخنساء حين جئتها بعد أن فت شبابى لقد ابيض رأسك ، وكان آخر عهدها بى ناشئا ضامر الجسم ممشط شعر الرأس وكنت أجرى مع الولدان وأتبعهم مرخيا ثوبى حاملا فى أذنى قريطا من ذهب (شأن أولاد الملوك) ،وكان آخر عهدى بها إذ ذاك فتاة صغيرة لها بيت تضع فيه عرائس من لعب .

ولا ريب أن هذا الشعر من خير ما يروى لامرئ القيس لأنه أول من تذكر الطفولة وبلهنية العيش ، شأنه فى ذلك شأن الأفرنج وبعض المعاصرين [1] . وقد

(١) تذكر بهذه المناسبة قصيدة مطران التى مطلعها :

هل تذكرين وتحن طفلان عهدا بدجلة ذكره غسم

وكتاب (الأيام) للدكتور طه حسين بك ، فسيبق هذا الكتاب مفخرة الجيل .

أسرف شعراء العرب فى ذكر الشباب والحنين اليه دون أن يذكروا الطفولة أو يشيروا اليها إلا ابن الرومى فانه قد أخرج لنا من الطفولة والشباب معا صورة عامة حية ناطقة هى آية من آيات الوحى والالهام قال :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ... ولبست فيه العيش وهو جديد
فاذا تمثل فى الضمير رأيته ... وعليه أغصان الشباب تميد

على أن صورة امرئ القيس ، وإن تكن جزئية لأنها لم تتعرض إلا لتصوير ناحية من نواحى الطفولة الناعمة ، حب اللعب ، لكنها لا تقل عن هذه الصورة فى روعتها وجمالها ، وهى تبين لنا عن مظهر من مظاهر شخصية امرئ القيس ، وهو الولع بالحقائق ، وحسن أدائها وتمثيلها ، وهو ما يسميه الافرنج (Le Réalisme).

ولأجل أن نفهم هذا المذهب لا نرى بدا من القول أن الأدب العربى منذ نشأته الى اليوم كان يتنازعه عاملان : عامل الحقيقة ، وعامل الخيال . وقد كان انتصار الثانى على الأول من أكبر الأسباب التى حالت دون بلوغه الدرجة التى كان خليقا بها ، فاذا رثى شاعر رجلا جعل الجبال تميد جزعا والسماء تضطرب حزنا ... واذا مدح إنسانا أو وصفه كان وصفه كله على سبيل المبالغة والتعميم بحيث يصبح كالثوب المأجور يصلح لكل أحد ، ورثاء البكرى لنابليون فى (صهاريجه) لا يخرج عن هذا النوع .

فنظرة الأديب العربى إلى الأشياء كانت فى مجموعها نظرة عامة مع ما يصحبها من غلو وإسراف . وقد نظر امرؤ القيس إلى الطفولة فذكر اللعب وذكر المئزر وقريطا من ذهب فأحسن تمثيل الحقيقة فى لون من ألوانها الخاصة التى لها شأنها ، ولا ريب أن تمثيل الكليات بجزئياتها وطبع الصور بطابع الحقيقة هو فى الوقت

نفسه أكبر دليل على صدق الحس والوجدان، كما أن مجرد عرض الحقيقة لا يحول دون إظهار لوعة الشاعر الكامنة فى حنين الوتر .

وإن هـذا الشعر فى تقاطيع أعاريضه أشبه بأرجوحة الطفولة التى تصحبها الأغانى والأشجان، أغان لا تزال فى آذاننا ولا تزال ذكراها تُقطّع نياط القلب .

* * *

لا شك فى أن طفولة امرئ القيس كانت رقيقة ناعمة وأن فؤاده منذ الصغر كان كبير الحاسة تنطبع عليه مشاهد الطبيعة والطفولة انطباعا فكان موهوبا مطبوعا وكان عمّاه سلمة ومعديكرب وخاله مهلهل الذى هلهل الشعر أى رققه ونقله من المقطعات إلى المطولات يقولون الشعر ، وقد ورث الشعر أيضا عن أجداده ومنهم حجر الملقب بآكل المرار[1] .

أما نسب امرئ القيس فهو حندج بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر (آكل المرار) وينتهى إلى كندة .

وأمه فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير التغلبية وهى أخت مهلهل وكليب ابنى ربيعة التغلبيين .

وقد ذكر صاحب الأغانى مختلف الروايات الخاصة بتاريخ امرئ القيس وهو اختلاف لا يمس الجوهر . وقد كان لكندة دولة بنجد هم ملوكها، وكندة من قحطان التى لا يعرف سبب هجرتها وتنقلها من الجنوب بالبحرين (حضرموت فمهرة وقصبتها دمون) إلى الشمال حيث قدم حجر إلى نجد سكن العرب العدنانيين

(١) المرار : شجر مر إذا أكلته الإبل قلصت عنه مشافرها واحدتها : مرارة ، قال ابن الكلبي : إنما سمى حجرا آكل المرار لأن ابنة كانت له سباها ملك من ملوك سليح يقال له ابن هبولة فقالت له ابنة حجر : « كأنك بأبى قد جاء كأنه جمل آكل المرار » يعنى كاشرا عن أنيابه ، فسمى بذلك .

وكان أول ملوك كندة . ولما زالت سيادة حمير باستيلاء الحبشة على اليمن استقل الحارث بن عمرو بن حجر بملك آبائه وأخذ ينافس دولة المناذرة بالعراق فى تقربهم من العجم، وكان ملك المناذرة وقتئذ المنذر بن ماء السماء وملك العجم قباذ أبو كسرى أنوشروان، وقد نجح الحارث فى سياسته فعزل قباذ المنذر عن الحيرة وولاه عليها، فاتسع بذلك سلطان الحارث الذى ملّك أبناءه الأربعة على قبائل معد : حجرا على بنى أسد وغطفان، وشرحبيل على قبائل بكر، ومعديكرب على قبائل قيس عيلان، وسلمة على تغلب والنمر .

ولكن بعد موت قباذ عاد المنذر إلى الحيرة فى عهد أنوشروان فهرب الحارث وأولاده واستمرت الحروب بينه وبين المنذر . وكان الحجر بن الحارث ملك بنى أسد يفرض عليهم الأتاوة كل سنة ولكنهم ما لبثوا أن امتنعوا عن أدائها فدوخهم وأعمل فيهم القتل والأسر ومزق شملهم حتى استشفع فيهم شاعرهم عبيد بن الأبرص فعفا عنهم ولكنهم عادوا إلى التمرد عليه حتى قتلوه .

هـذا موجز تاريخ آباء امرئ القيس الذين اتخذوا نجد مقاما ومقرا لملكهم، قال ياقوت : " وكان موضع مملكة حجر الكندى بنجد ما بين طمية وهى هضبة بنجد إلى حمى ضرية، إلى دارة جلجل من العقيق، إلى بطن نخلة الشامية، إلى حزنة، إلى اللقط، إلى أفيح، إلى غماية، إلى عمايتين، إلى بطن الجريب، إلى ملحوب، إلى مليجيب . فما ارتفع من بطن الرمة فهو نجـد إلى ثنايا ذات عرق، وعرق هو الجبل المشرف على ذات عرق، وقد ذكر امرؤ القيس معظم هـذه الأماكن فى شـعره " .

ثم أضاف ياقوت " وقال العتبى حدثنا الرياشى عن الأصمعى قال : العرب تقول اذا خلفت حجلزا مصعدا حتى تنحدر إلى ثنايا ذات عرق فاذا فعلت ذلك فقد أتهمت

إلى البحر وإذا عرضت لك الحرار وأنت تجد فتلك الحجاز تقول احتجزنا الحجاز فاذا تصوبت من ثنايا العوج فقد استقبلت الأراك والمرج وشجر تهامه فاذا تجاوزت بلاد فزارة ثم أنت بالجناب إلى أرض كلب ... ولم يذكر الشعراء موضعا أكثر مما ذكروا نجدا".

وقال الهمدانى فى (صفة جزيرة العرب) :

(... ... وبطن الرَّكَاء فى وسطه الدَّخول، ماء قريب من صفا الأطيط وهضب ذى أقدام، ويظهر لك رأس سجام . وهذه المواضع التى يقول فيها امرؤ القيس:

﴿ لمن الديار عرفتها بسُجام فعمايتين فهَضبُ ذى إقدام ﴾
﴿ فصفا الأطيط فصاحتين فغاضر تمشى النعاج بها مع الآرام ﴾

* * *

فى نجد، فى أوائل القرن السادس قبل الميلاد ، بين الزروع والنخيل والماء والمرعى ، بين الوهاد والنجاد ، حيث تخايل الأرض جنة ونعيما ، ويطيب الهواء، ويحلو العيش ، نشأ امرؤ القيس، وكان مولعا من صغره بكثرة التنقل مما ساعد على تكوين قوة الملاحظة وتوسيع أفق خياله بسبب تعدد المشاهد واختلاف مظاهر النفاد والزوال ، ومتى توفرت الحاسة والخيال والملاحظة عند شاعر فقد كملت أداته وحان نضوجه وأصبحت الأرض والسماء ومناظر الكون والحياة صغيرها وكبيرها ، دقيقها وجليلها تخرج من بيان الشاعر صورا يتجلى فيها وجه الحقيقة، وموسيقى زاخرة شجية فياضة كعباب البحر .

ولا نبالغ إذا قلنا عن امرئ القيس إن لهوه كان جدا . قال جول ليميتر : " يجب أن نجعل من الشباب خزانة ذكريات " ، وقد لها امرؤ القيس لهو الحكيم، أليس هو القائل :

﴿ تمتع من الدنيا فانك فانٍ من النشوات والنساء الحسانِ ﴾

وقد ضرب المتنبي على نغمة الفناء هذه فى استعطاف الغوانى واجتذاب قلوبهن :

زودينا من حسن وجهك ما دا — م فحسن الوجوه حال تحول
وصلينا نصلك فى هذه الدنيـ — ـا فان المقام فيها قليل

ولقد وقف بامرئ القيس المطاف فى أسفاره ولهوه وتجواله حين بلغه مقتل أبيه فى جبل دمون فقال :

(أتانى حديث فكذبته — بأمر تزعزع منه القلل)
(بقتل بنى أسد ربهم — ألا كل شىء سواه جلل)

وقال :

(تطاول الليل علينا دمون — دمون أنا معشر يمانون)
(وإننا لأهلنا محبون)

شعر رهيب ساكن الروى تكاد تسمع منه دقات الطبل الذى يؤذن بموت اللذات فى بهو الحياة .

أخذ امرؤ القيس بعد ذلك يجمع الجموع ويستنجد القبائل للأخذ بثأر أبيه واسترداد ملكه الذى أبيح وصار لسان حاله على حد قول الكاظمى :

ما سلونا آرام نجد ولكن — شغلتنا العلى عن الآرام

وقد بلغ بنى أسد ما بيته لهم امرؤ القيس فأرسلوا إليه وفدا وفيه عبيد بن الأبرص وقبيصة بن نعيم فاحتجب عنه ثلاثا ، ثم خرج اليهم فى قباء وعمامة سوداء ، وكانت العرب لا تعتم بالسواد إلا فى الترات ، فقال له قبيصة " إنك فى المحل والقدر ، والمعرفة بتصرف الدهر ، وما تحدثه أيامه وتتنقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تبصرة واعظ .... وقد مضى بأبيك سبيل لا ترجع أخراه على أولاه ولا يلحق أقصاه أدناه فأحمد الحالات فى ذلك أن تعرف الواجب عليك فى احدى خلال

ثلاث : — أما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتا، وأعلاها فى بناء المكرمات صوتا، فقدناه إليك بنسعه، أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها فهى ألوف تجاوز الحسبة، وإما أن توادعنا حتى تضع الحوامل فنسدل الأزر ونعقد الخمر فوق الرايات ".

فبكى امرؤ القيس ثم قال : لقد علمت العرب أن لا كفؤ لحجر فى دم، وإنى لن أعتاض به جملا أو ناقة فأكتسب بذلك سبة الأبد وفت العضد، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة فى بطون أمهاتها ولن أكون لعطبها سببا.

ثم صار امرؤ القيس إلى أخواله (بكر وتغلب) فأمدوه بجيش فسار إلى بنى أسد فهربوا منه فلحقهم وأمعن فيهم القتل حتى حجز الليل بينهم فهربوا منه فأراد متابعتهم فأبت بكر وتغلب وقالوا لقد أصبت ثارك. فانطلق يجمع شذاذ العرب ويستأجر رجالا منهم لمتابعة الحرب، ولكن المنذر ملك الحيرة، كان يكره ملوك كندة كما هو معلوم، سار إليه بجيش كبير وأمده كسرى بكتيبة من الأساورة ففضوا من حوله ولم يبق مع امرئ القيس إلا عصبة من بنى آكل المرار فسار بهم متنقلا فى أحياء العرب حتى نزل بالسَّمَوْأَل فأقام عنده ثم طلب إليه أن يكتب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى بالشام ليوصله إلى قيصر ملك الروم عدو كسرى والمنذر.

قال صاحب كتاب شعراء النصرانية[1]: " إن ذكر امرئ القيس جاء فى تواريخ الروم مثل نونوز وبيركوب وغيرها، وهم يسمونه قيسا وقد ذكروا إنه قبل وروده على القيصر يوستنيانس أرسل إليه وفدا يطلب منه النجدة على بنى أسد وعلى المنذر ملك الحيرة، وكان مع الوفد ابنه معاوية سيَّره امرؤ القيس إلى قيصر ليبقى عنده كرهن فكتب قيصر إلى النجاشى يأمره أن يجند الجنود ويسير إلى اليمن ويعيد

(١) ذكره السندوبى فى مقدمة " ديوان امرئ القيس ".

الملك لصاحبه، قال : ولعل هذا الوفد أرسله امرؤ القيس لما كان عند بني طيء وطال عندهم مكثه ، ثم أخبر المؤرخون أن امرأ القيس لم يلبث أن سار بنفسه إلى قسطنطينية فرغبه قيصر ووعده ، وقد ذكر نونوز المؤرخ أنه يوستنيانس قلده إمرة فلسطين، إلا أنه لم يسع فى إصلاح أمره وإعادة ملكه فضجر امرؤ القيس وعاد إلى بلده فتوفى فى طريقه . أصابه مرض كالجدرى فى الدرب فكان سبب موته . قال : وذكر فى كتاب قديم مخطوط أن ملك قسطنطينية لما بلغه وفاة امرئ القيس أمر بأن ينحت له تمثال وينصب على ضريحه ففعلوا . وكان تمثال امرئ القيس هناك إلى أيام المأمون، وقد شاهده عند مروره هناك لما دخل بلاد الروم ليغزو الصائفة .

وذكر رواة العرب أن القيصر أكرم امرأ القيس لما نزل عنده وكانت له لديه حظوة، ثم أنه ضم إليه جيشا كثيفا وكان من سوء حظ امرئ القيس أن رجلا من بنى أسد يقال له الطماح بن قيس الأسدى اندس حتى أتى بلاد الروم فأقام مستخفيا وكان قد اتصل ببعض أصحاب قيصر وألقى إليهم ما أوغر صدورهم فقالوا لقيصر، إن العرب قوم غدر ولا نأمن أن يظفر بما يريد ثم يغزوك وقيل غير ذلك فبعث قيصر إلى امرئ القيس فى الطريق بحلة وشى مسمومة منسوجة بالذهب فوصل إليه الرسول دون أنقرة فلبس الحلة فرحا بها فأسرع فيه السم وتساقط جلده ولذلك سمى ذا القروح ، وفى ذلك يقول :

﴿ ألما على الربع القديم بعسعسا	كأنى أنادى أو أكلم أخرسا ﴾
﴿ فلو أن أهل الدار فيها كعهدنا	وجدت مقيلا عندهم ومعرسا ﴾
﴿ فلا تنكرونى إننى أنا ذاكم	ليالى حل الحى غولا فالعسا ﴾
﴿ تأوبنى دائى القديم فغلسا	أحاذر أن يرتد دائى فأنكسا ﴾

﴿ فإما ترينى لا أغمض ساعة	من الليل إلا أن أكب فأنعسا ﴾
﴿ فيارب مكروب كررت وراءه	وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا ﴾
﴿ ويارب يوم قد أروح مرجلا	حبيبا إلى البيض الكواعب أملسا ﴾
﴿ يرعن إلى صوتى إذا ما سمعنه	كما ترعوى عيط إلى صوت أعيسا ﴾
﴿ أراهن لا يحببن من قل ماله	ولا من رأين الشيب فيه وقوسا ﴾
﴿ وما خلت تبريح الحياة كما أرى	تضيق ذراعى أن أقوم فألبسا ﴾
﴿ فلو أنها نفس تموت سوية	ولكنها نفس تساقط أنفسا ﴾
﴿ وبدلت قرحا داميا بعد صحة	فيالك من نعمى تحولن أبؤسا ﴾
﴿ لقد طمح الطماح من بعد أرضه	ليلبسنى من دائه ما تلبسا ﴾
﴿ ألا إن بعد العدم للمرء قنوة	وبعد المشيب طول عمر وملبسا ﴾

قصيدة كلها شجى وأنين وهى تمثل لنا حياته وشخصيته أدق تمثيل . بدأ ببكاء الديار فى الأبيات الثلاثة الأولى ، ثم ذكر مرضه ويظهر أنه كان يأمل البرء منه ولكنه طال واشتد عليه فى تلك الآونة ، ثم تذكر حاله فى أبهته وقوته يطاعن الخيل للنجدة تارة وأخرى يترفه ويتنعم بين البيض الكواعب اللواتى كان يروح إليهن مرجلا ، والترجيل تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه ، وكن يرعن إلى صوته أى يفزعن ويلتفتن ، كما ترعوى النوق الفتية التى لم تحمل بعد إلى صوت الأعيس . وهو الفحل القوى على الضراب .

والواقع أن امرأ القيس فهم النساء وحلل حياة الحب تحليلا صادقا وهو كما قلنا وصاف أو مصور ماهر ولوع بالحقائق يرسم خطا أو خطين فتبدو الصورة حية كما لو كانت كاملة بجميع جزئياتها ودقائقها وبعبارة أخرى إذا رسم امرؤ القيس

صورة أظهر ملامحها فكانت أفعل فى النفس من تلك الصور الخيالية المبهمة التى لا يتلوها مسحة من جمال الحقيقة والفن .

على أن امرأ القيس إذا لجأ إلى التعميم كان كلامه حكماً وأمثالا .

(أراهن لا يحببن من قل ماله ولا من رأين الشيب فيه وقوسا)

ولو اقتصر على القول بأنهن لا يحببن من قل ماله ولا من رأين الشيب فيه لكانت الصورة العامة باجتماع الفقر والشيب ، ولكنه أضاف إلى هذه الصورة جزئية أو لمحة من الحقيقة وهى (تقويس الظهر) فظهرت الصورة فى شكل يروع .

عاد بعد ذلك الشاعر إلى مرضه وفيه نزعة المصور المحقق فقال :

(وما خلت تبريح الحياة كما أرى تضيق ذراعى أن أقوم فألبسا)

(فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا)

يقول برحت بى الحياة فأصبحت ذراعى تضيق أن أقوم فألبس ... ... ثم يقول :

لو أن النفس تموت سوية أى دفعة لأراحتنا ولكنها تساقط أنفسا أى تموت متفرقة كأنها مؤلفة من عدة أنفس تموت الواحدة منها تلو الأخرى ... ...

وفى ذلك أبرع تصوير لطول عذاب النفس فى مرض الموت .

وكان جابر التغلبى يحمله فى محفة وهو مريض أثناء الطريق فقال فى ذلك :

(فاما تريني فى رحالة جابر على حرج كالقر تخفق أكفانى)[1]

---

(1) الرحالة : الخشب الذى يحمل عليه فى مرضه . والحرج : سرير يحمل عليه المريض أو الميت . والقر : مركب من مراكب الرجال بين الرحل والسرج . تخفق : تضطرب .

(فيارب مكروب كررت وراءه وعان فككت الغل عنه ففدانى)

(إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شئ سواه بخزان)

وقد جرى هذا البيت الأخير مجرى الأمثال .

فلما بلغ أنقرة بدأ يحتضر ثم رأى قبرا دفنت فيه امرأة من أبناء الملوك فقال :

(أجارتنا إن الخطوب تنوب وإنى مقيم ما أقام عسيب)

(أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب)

وقد زعم بعض المؤرخين أن امرأ القيس حين نطق بالبيتين كان فى سفح جبل يقال له عسيب بالقرب من أنقرة والمعروف أن عسيب جبل بعالية نجد، يقال لا أفعل ذلك ما أقام عسيب، وهو الذى ذكره امرؤ القيس .

وتوفى الشاعر فى أنقرة فيما بين سنة ٥٣٠ و ٥٤٠ للميلاد .

الفصل الثالث

امرؤ القيس كما يراه المتقدمون

للمتقدمين فى النقد والحكم على الشعراء كلمات مملوءة ايجازا ولكنها قل أن تتعدى دائرة معينة من الفكر والنظر، ولئن كان لهم العذر فى جهل طريقة النقد البنائية من بحث وتحليل فقد يؤخذ عليهم أنهم فى تقدير الشعر عنوا بالعرض لا بالجوهر واهتموا بأمور ثانوية كالمطلع والمعانى المخترعة والاستعارات والتشبيه، وأمدح بيت وأهجى بيت قالته العرب، فوقفت عنايتهم عند حد الزخرفة والجزئيات والمتهم الاستعارة عن البيت أو عما وراءه من صورة فذة تتوثب فيها العاطفة والوجدان، والبيت أو الأبيات عن القصيدة ومحيط شعر الشاعر، وقد تعمق البعض فى النقد الضيق والفهم السقيم فغابت عنهم روعة الشعر وبيانه، ولعل أفضل البحوث النقدية القديمة وأوسعها هو كتاب الآمدى فى الموازنة بين أبى تمام والبحترى، ولكن موازنته لم تتعد مقارنة البيت بالبيت والمعنى بالمعنى وما إلى ذلك من ... سرقات، فكان مثله مثل غيره ينظر إلى السماء ويقع فى حفرة.

كتب ابن رشيق فى (باب المخترع والبديع) يقول: "المخترع من الشعر وهو مالم يسبق اليه قائله ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب به كقول امرئ القيس:

(سموت اليها بعد ما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالا على حال)

فانه أول من طرق هذا المعنى وابتكره وسلم الشعراء اليه فلم ينازعه أحد إياه وقوله:

(كأن قلوب الطير رطبا ويابسا ... لدى وكرها العناب والحشف البالى)

وله اختراعات كثيرة يضيق عنها الموضع ، وهو أول الناس اختراعا فى الشعر وأكثرهم توليدا ... »

هذا البيت الأخير جاء فى وصف العقاب (العناب ثمر أحمر والحشف مايبس من التمر) وقد أجمع الرواة على أن هذا أحسن بيت جاء فى تشبيه شيئين بشيئين فى حالتين مختلفين وتقديره كأن قلوب الطير رطبا العناب ويابسا الحشف البالى . وخص القلوب لأن فرخ العقاب فيما يقال يأكل لحم الطائر ما خلا قلبه فلذلك كثرت قلوب الطير عندها .

وقد رووا أن بشار ابن برد قال : لم أزل أحسد امرأ القيس على قوله :

(كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى)

حتى قلت :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

قالوا ولكن امرأ القيس قد سبق إلى صحة التقسيم فى التشبيه ولم يتمكن بشار إلا من تشبيه حالة واحدة لأن قلوب الطير وإن كانت واحدة فإن لها حالتين .

قالوا ومن أحسن ماوصف به امرؤ القيس قوله :

(وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل)

فابتدع (قيد الأوابد) عنى بذلك أنه إذا أرسله على الصيد صار قيدا له من شدة عدوه ، وقد اقتدى الشعراء والكتاب به فيه فقالوا قيد النواظر وقيد الكلام .

وقال ابن رشيق أيضا فى باب التمثيل الذى هو من ضروب الاستعارة — وذلك أن تمثل شيئا بشىء فيه إشارة إليه — إن امرأ القيس أول من ابتكره ، ولم يأت أملح من قوله فيه :

(وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل)

فمثل عينيها بسهمى الميسر، يعنى المعلى وله سبعة أنصباء، والرقيب وله ثلاثة أنصباء، فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثل بهما عينيها، ومثل قلبه بأعشار الجزور فتمت له الاستعارة والتمثيل .

وقال فى الإيغال : وهو ضرب من المبالغة إلا أنه فى القوافى خاصة لا يعدوها، وليس بين الناس اختلاف أن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى بقوله يصف الفرس :

(إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه تقول هزيز الريح مرت بأثاب)

فبالغ فى صفته وجعله على هذه الصفة بعد أن يجرى شأوين ويبتل عطفه بالعرق، ثم زاد إيغالا فى صفته بذكر الأثاب، وهو شجر للريح فى أضعاف أغصانه حفيف عظيم وشدة صوت، ومثل ذلك قوله :

(كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب)

قال أبو عبيد البكرى : الظباء والبقر عيونها سود فى حال الحياة فإذا ماتت بدأ بياضها فلذلك شبهها بالجزع الذى فيه سواد وبياض بعد ما ماتت . والجزع هو الخرز اليمانى الصينى فيه سواد وبياض قال : وهذا التشبيه من التشبيهات العقم التى لم يسبقه أحد إليها ولا تعاطاها أحد بعده ولو قال وقام به البيت ولم يقل (الذى لم يثقب) لكان من أبدع تشبيه وأحسنه، ثم زاد تتميما وحسنا بقوله (الذى لم يثقب) وكمل له بذلك نظم البيت ووضع القافية، وهذه الصناعة من الشعر تسمى التبليغ، لأنه أتى بمعنى زائد بلغه إلى القافية .

ويسمى أيضا الإيغال فى التشبيه، واتبعه زهير فقال :

كأن فتات العهن فى كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم

وأوغل فى التشبيه إيغالا بتشبيه ما يتناثر من فتات الأرجوان بحب الفنا الذى لم يحطم لأنه أحمر الظاهر أبيض الباطن .

وقالوا إن له فى تشبيهاته طرائق بديعة هو أول من ابتكرها كتشبيه الإضافة فى قوله :

(له أيطلا ظبى وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تتفل)

وفيه تشبيه أربعة بأربعة وقد زعم الفرزدق إنه أكمل بيت قالته العرب أو قال أجمع بيت وهو أول من فتح هذا الباب (العمدة) .

وكان امرؤ القيس أول من اخترع التتبيع وهو أن يريد من الوصف ما يلزم من حقيقته الممثلة فى الذهن وقد اتفق له من ذلك ما يعد غاية فى الحسن ، كقوله فى وصف سالفة الفرس :

(وسالفة كسحوق اللّيا ن أضرم فيها الغوى السُّعُر)[1]

فقد أراد من وصف عنق الفرس بأنها شجرة متوقدة من شجر الكندر ما يستتبعه هذا الوصف من لون النار وهى الشقرة ، فكأنه أراد أن يقول إن فرسه شقراء فاحتال لذلك بهذا التشبيه البديع وقد أخذ هذا التشبيه أوس بن حجر فقال :

حتى يلف نخيلهم وبيوتهم لهب كناصية الحصان الأشقر

وبيته معدود عند أهل البديع من عجيب ما وقع فى باب التتبيع (العمدة) لأنهم يقولون إنه أراد الحرب التى هى المقصود بالصفة .

وزعموا (ابن وكيع : العمدة) إن أول استعارة وقعت فى الكلام قول امرئ القيس :

(وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى)

(فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف إعجازا وناء بكلكل)

---

(١) سالفة الفرس : هاديه وهو ما تقدم من عنقه ، والسحوق من النخل والحمير والأتن : الطويلة ، واللين : النخل الدقل ، والسعير : النار ولهيبها ج سعر .

وقد لخص آراء المتقدمين في هذين البيتين الأستاذ مصطفى صادق الرافعي (تاريخ آداب العرب) قال :

ليس يخفى أن العربي الذي يجيء بالاستعارة المتمكنة إنما كان ينظر فيها ويديرها إدارة ، بحيث لا تتفق اتفاقا ولا تجيء عفوا إلا في النادر ، ولذلك قل الجيد منها في كلامهم حتى نزل القرآن ، فتكون من هذه الجهة اختراعا يدل على قوة غير قوة الفطرة ، وهي في امرئ القيس أكثر منها في المأثور من شعر غيره من الجاهلية ، وأصفى ماء ، وأعذب رواء ، وحسب ذلك أن يكون دليلا على تفضيله ، وأشهر الاستعارات التي اتفقت له هذان البيتان .

فاستعار لليل سدولا يرخيها ، وصلبا يتمطى به ، وأعجازا يردفها ، وكلكلا ينوء به ، وقد تنازعهما الأدباء حتى جريا مجرى المثل ، وقلما تجد كتابا في البيان خاليا منهما ، وقد ذكر الآمدي في الموازنة البيت الثاني ورد عليه ابن سنان وجعله من الاستعارة المتوسطة ، وفرق بينهما صاحب المثل السائر ولكنه على كل حال بمنزلة من الحسن .

قال الرافعي . وسنخط في البيتين كلمة موجزة : أما الأول فان تشبيه الليل بموج البحر تشبيه لا أحسن منه ، لما يجيش فيه من الظنون ويتقلب من الخواطر ، ثم هو مرمى البصر من سريرة الكون ، فذلك شبه اتساع البحر وغوره بالنسبة لما يدرك النظر منه ، غير أن قوله أرخى سدوله ، ذهب بذلك الحسن كله ، إذ أفاد أن الغرض من التشبيه غرض محسوس ، وهو أدنى أنواعه ، لأن إرخاء السدول إنما يدل على السكون والحجاب ، لا أكثر من ذلك ، والكلمة استعارة لظلام الليل ، فصارت لفظة الموج لا معنى لها إلا إقامة الوزن ، وهي التي كانت عمود الحسن في التشبيه :

وأما البيت الثانى فقد أجمعوا على أنه فى وصف طول الليل ، ولست أراه كذلك ، وإلا فلو تمطى كلب ما زاد فى وصف طوله على هذه الألفاظ ، وإنما أراد الشاعر ثقل الليل وفتوره ، وانه كلما هم أن ينجلى سقط ، كما يفعل الذى يتمطى ثم يُردف أعجازه ثم ينوء بكلكله فالوصف حقيقة ممثلة وتصوير ناطق ، وعلى ذلك المعنى تكون الاستعارة أبلغ ما يمكن أن يقع فى هذا الموضوع ، وما أخطأ من عدّه من التشبيه المضمر الأداة لأنه به أليق .

وقد علل الرافعى أسباب شهرة امرئ القيس فى العرب وبقاء شعره على ألسنتهم فقال : " إنهم يجدون فى بعض كلامه رقة المنادمة وطرب الخمر وفتور الغزل وغير ذلك مما هو من حظ القلب ، ثم هم يرونه إذا أخذ فى غير هذه المعانى يطبع ألفاظه على قالبها من الاستعارة والتشبيه ، فاذا قابلوا ذلك بخشونة غيره وانصرافه إلى أوصاف البداوة ، وجدوا فى شعره كالظل الذى يفيء ، والماء الذى يجرى والحسن الذى يتبيّح ، والنسيم الذى يترنّح ، فكان ولا جرم كأنه يستهويهم استهواء . وكان مجموع شعره فى البدو حضارة وفى الحضر بداوة . وهذا مروان بن أبى حفصة الشاعر أنشده العتبى لزهير ، فقال ، هذا أشعر الناس ، ثم أنشده للاعشى ، فقال : بل هذا أشعر الناس ، ثم أنشده لامرئ القيس فكأنما سمع به غناء على الشراب فقال : امرؤ القيس والله أشعر الناس (ص ٩ الطبقات) ومروان شاعر فى صميم الحضارة ، فكيف بالعرب ؟ وعندى أن هذا أعظم ما تميّز به شاعرية امرئ القيس ، لأنه دليل الصنعة التى تبرز على الطبع . والطبع الذى يبلغ فى سموّه مبلغه بالصنعة ، وهو الدليل الذى لو سقط من شعره لسقط بشعره لا محالة " .

وقد تعرض الرافعى لامرئ القيس فى كتاب آخر[1] فقال: "ان امرأ القيس فى رأيى إنما هو عقل بيانى كبير من العقول المفردة التى خلقت خلقها فى هذه اللغة ... ... وكما يقال فى زمننا فى أمم الصناعة سيارة فورد وسيارة فيات يمكن أن يقال مثل ذلك فى بعض أنواع البلاغة العربية . استعارة امرئ القيس وتشبيه امرئ القيس ..." ثم قال :

" وعرض الباقلانى فى كتابة طويلة لمعلقة امرئ القيس فانتقد منها أبياتا كثيرة ليدلل بذلك على أن أجود شعر وأبدعه هو قبيل آخر غير نظم القرآن لايمتنع من آفات البشرية ونقصها وعوارها فركب فى ذلك رأسه ... " .

ولما انتقد قوله :

((وبيضة خدر لا يرام خباؤها — تمتعت من لهو بها غير معجل))

قال : " فقد قالوا يعنى بذلك أنها كبيضة خدر فى صفائها ورقتها وهذه كلمة حسنة ولكن لم يسبق اليها بل هى دائرة فى أفواه العرب ". ألا ليت شعرى هل كان الباقلانى يسمع من أفواه العرب فى عصر امرئ القيس قبل أن يقول (وبيضة خدر)، على أن الكناية عن الحبيبة ببيضة الخدر من أبدع الكلام وأحسن ما يؤتى العقل الشعرى، ولو قالها اليوم شاعر فى لندن أو باريس بالمعنى الذى أراده امرؤ القيس لاستبدعت من قائلها ولأصبحت نمع القبلة على كل فم جميل ... ... إنما عنى الشاعر العظيم أن حبيبته فى نعومتها وترفها ولين ما حولها ، ثم فى مسها وحرارة الشباب فيها، ثم فى رقتها وصفاء لونها وبريقها، ثم فى قيام أهلها وذويها عليها ولزومهم إياها . ثم فى انصرافهم بجملة الحياة الى شأنها وبجملة القوة الى حياطتها

(١) مقدمة كتاب (أمير الشعر فى العصر القديم) لمحمد صالح سمك .

والمحاماة عنها . هي في كل ذلك منهم وعن نفسها كبيضة الخارج في عشه إلا أنها بيضة خدر ولذلك قال بعد هذا البيت :

(تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا على حراصاً لو يسرون مقتلى)

فتلك بعض معانى الكلمة وهي كما ترى ، وكذلك ينبغى أن يفسر البيان " .

وقد أجمع الرواة على استحسان قول امرئ القيس :

(قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل)

(فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل)

وقال أهل الأدب أن شاعرنا أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل فى نصف بيت . وقد انتقد بعضهم ذكر الأماكن (بسقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة) فقالوا (الباقلانى) إنه لا يفيد ذكر هذه الأماكن كلها وقد كان يكفيه أن يذكر فى التعريف بعض هذا ، وهذا التطويل إن لم يفد كان ضربا من العى .

وقد انتقد أيضا بعضهم قول البحترى :

برق سرى فى بطن وجرة فاهتدت بسناه أعناق الركاب الضلل

وقالوا إن ذكره بطن وجرة حشو وفى ذكره خلل لأن النور القليل يؤثر فى بطون الأرض وما اطمأن منها بخلاف ما يؤثر فى غيرها فلم يكن من سبيله أن يربط ذلك ببطن وجرة ، وتحديده المكان على الحشو أحمد من تحديد امرئ القيس بذكر سقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة . لم يقنع بذكر حد حتى حدده بأربعة حدود كأنه يريد بيع المنزل فيخشى إن أخل بحد أن يكون بيعه فاسدا وشرطه باطلا[1] .

(١) (الوسيلة الأدبية) للشيخ حسين المرصفى .

وإتماما للفائدة نذكرها رأى صاحب مجموعة الروائع وهو من الكتاب الحديثين ، قال فى فصل عنوانه (قيمة شعر امرئ القيس) : "فضل امرئ القيس فى سبقه الشعراء الى أبواب كثيرة، وتعرفه بمعانيها العديدة. ساعده على ذلك ترف شبابه، ثم تقلبات الدهر عليه، وتتابع أسفاره، وهو وافر الشعور بكل ذلك يجمعه الى خيال متبسط ، وروعة شعرية سامية . فسنّ للشعراء طرقا وأساليب تبعوها عن قرب ولما يزالوا، مأخوذين بتلك المطالع الجميلة من أمثال :

ألا انعم صباحا أيها الطلل البالى

أو ، قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

" فكان أول من وقف واستوقف على الأطلال، وبكى من ذكر الأحبة ، وأدخل فى الشعر مواضيع الغزل الرقيقة، مع إطالة الوصف واستيفاء جميع صوره ،

" وكان فضله فى ابتكار التعبير فضله فى ابتكار المعنى ، فظهرت عن مخيلته تلك التشابيه الجميلة، والايجازات الجامعة، فى مثل قوله :

(كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب)

" وكان أكثر قصائده حظا من هذه المبتدعات المعلقة الشهيرة (فوقف فى أولها واستوقف وبكى واستبكى ، على قول النقاد، وكل ذلك بكلمتين : (قفا نبك) ، و(قيد الأوابد) بوصفه سرعة الفرس إذ جعله كقيد للوحوش ، أى أنه يدركها بسرعة فيمنعها عن الجرى .

" وكان هذا الايجاز الجميل يدفع الشاعر بعض الأحيان الى ارسال المثل فيسير بيته فى أحياء العرب متنقلا من عصر الى عصر حتى يومنا هذا . وما قول الأدباء فى هذا البيت ، بعد طول الأسفار وتحمل المشقات :

(وقـد طوفت فى الآفاق حتى * رضيت من الغنيمة بالإياب)

وفى هذا الشطر فى القناعة : (وحسبك من غنى شبع ورى)

" وهناك كثير من أمثال هـذه الأقوال الجامعة استفاد الشاعر عناصرها من أسفاره الطويلة ، وأفادت شعره أن أنالته انتشارا واسعا منذ عصر صاحبه . حتى أنه كان يغنى به فى الجاهلية وكذلك غنى به كثيرا فى صدر الاسلام "

هذا مجمل آراء القـدماء والمحدثين فى امرئ القيس ذكرناها على علاتها ليتبين بواسطتها القارئ نهج البحث الذى نسير عليه بعد أن رسمنا أسسه العامة فى الفصلين الأولين .

الفصل الرابع

التمثيل والتصوير فى شعر امرئ القيس

إذا اجتمعت لشاعر ملكة التمثيل وملكة البيان كان شعره شعرا لا كلاما موزونا مقفى وبهما يمتاز عن غيره من الشعراء وكلما كان الشاعر عظيما كلما كانت عظمته سرا من الأسرار تستعصى على الشرح والتفسير، ذلك لأن التمثيل يصدر عن العقل الشعرى وهو مؤلف من الادراك والحس وقوة الملاحظة، وهذه القوات الثلاث هى التى تجعل من الانسان الضئيل الذى هو شبر فى شبر قوة تتحرك وتتوثب فى حدود اللانهاية ، فاذا أضيفت الى ملكة التمثيل ملكة البيان وهما صنوان لا يفترقان ظهرت فى شعر الشاعر تلك القوة المغناطيسية الجذابة التى قال عنها النبى صلى الله عليه وسلم : (وإن من البيان لسحرا)، تلك القوة الهائلة التى تجذبك اليها جذبا تحس به اذا هجم عليك منظر الجبل أو منظر البحيرة فى الليلة القمراء أو منظر السماء الصافية ذات الكواكب أو الغابة العظيمة الممرضة فى الطريق ، أو السَّحر الذى يضيء وجه المدائن المطمئنة (والطير فى وكناتها)، ذلك السَّحر الذى كان يحبه امرؤ القيس ويخرج فيه للصيد بين هضاب نجد ووديانها ورياحها وشجرها :

﴿ وقد أغتدى والطير فى وكناتها   بمنجرد قيد الأوابد هيكل ﴾

(قيد الأوابد) تشبيه فذ ولكن روعة البيت وقوة جاذبيته مركزتان فى الشطر الأول ، فى تمثيل السحر لا الحصان، وأين ذلك التشبيه من تلك الصورة الرائعة

التي سبق إليها امرؤ القيس شعراء الإفرنج الذين يتكلمون عن (الخروج والطير في أوكارها)، يريدون بذلك السحر الأول وهو الذى يقصده شاعرنا، قال يصف حمارا وحشيا :

(يغرد بالأسحار فى كل سدفة تغرد مياح الندامى المطرب)[1]

يريد أنه يطرب بصوته وقت السحر فى كل سدفة، والسدفة فى كتب اللغة من الأضداد تأتى بمعنى الضوء قيسية وتأتى بمعنى الظلمة تميمية أو القطعة من الليل أو سواده ويقال : أسدف الليل : أظلم، وأسدف الفجر : أضاء، وسدفة الباب أوصدته، والسدفة سترة تكون على الباب تقيه من المطر. ولا شك أن امرأ القيس يستعمل الكلمة هنا استعمالا شعريا فصيحا، فالسدفة هنا هى الظلمة التى يختلط بها الضوء أو الضوء الذى تختلط به الظلمة فى بدء السحر ولا سيما فى الأماكن الكثيفة كألفاف الشجر والغاب ريثما يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود .

قال امرؤ القيس يصف الحصان :

(إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه تقول هزيز الريح مرت بأثأب)

طربوا لما فى هذا البيت من (إيغال) في وصف شدة مرور الريح بشجر الأثأب، والايغال لايعنينا لأن جمال البيت فى الإحساس القوى بمظهر من مظاهر الطبيعة التى تبدو فى معظم صور امرئ القيس وتنعكس عليها ولئن كانت الطبيعة وقواتها ومحاسنها تأتى فى المحل الثانى أى فى محل (الموصوف به) لا (الموصوف)، فان ذلك لايمنع شاعرنا بقوة تصويره وعاطفته من جعلها فى المحل الأول من النفس،

(١) ماح ميحا : تبختر وهو ضرب من المشى فى رفق وحسنة وهو مشى كمشى البطة (مياحة تميح مشيا رهوبيا) . وتمايح السكران والغصن : تمايل . وماحت الريح الشجرة : أمالتها . وتميح الغصن : تميل يمينا وشمالا . والندامى : المتنادمون على الشراب .

وسرعان ما نغفل جريان الجواد فى الشطر الأول لنستمع الى هزيز الريح مرت بأثأب ... وقد أظهر شاعرنا قوة بيانه فى انتقاء اللفظ ومخارج الحروف وبراعة الرصف وحسن تمثيله فأدخل الريح وتطريبها وشجوها فى البيت إدخالا وأوغل فى جمال الطبيعة وفى أحضانها إيغالا .

قال امرؤ القيس :

﴿ كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى ﴾

قال العلماء إن الشاعر قد أبدع لأنه شبه شيئين بشيئين ونسبوا الى بشار أنه حسد امرأ القيس على هذا الاختراع . ولا نشك فى أن بشارا وإن كان أعمى قد رأى فى البيت شيئا آخر غير التشبيه وأحسه وطرب له . رأى صورة من صور الحياة والفناء التى تزخر بها الطبيعة فاخترقها، رأى قلوب الطير فى وكر العقاب، ورأى بينها الرطب واليابس، وهى القلوب التى افترسها ذو المخلب فى عصور مختلفة، أقول رأى قلوب الطير بعد موتها وتغير حالها كقبضة من العناب والحشف البالى ... وفى البيت تجرى نسمة من الحزن والنغم المشجى وسحر البيان : وكل ذلك كانت تفهمه أذن البدوى فى جبال نجد مهد الفصاحة وموئلها . وكل ذلك أحسه البدوى الذى كان يحدو جماله بالشعر الغنائى ويشق جيبه طربا .

وهذا النوع من الشعر طرقه الافرنج فقال أحدهم فى بلبل وجده على الأرض ميتا (كأنه حصاة من دم) (Comme un caillou de sang) ولامرئ القيس بيت آخر من هذا الطراز بلغ غاية الحسن :

﴿ كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب ﴾

يريد الوحش الذى كان يصيده ... وكانت عيونه متفرقة على الأرض حول الخباء والأرحل كأنها الخرز . ومما يزيد البيتين جمالا إبداع الشاعر فى تلوين صوره

وإيجاد اللون الذى ينطبق عليهما انطباقا يجعلها زاهية تقرب الحقيقة إلينا وتحببها فتصبح الصورة والأصل كأنهما وحدة واحدة تتسرب كلتاهما فى الأخرى وتتلاشى .

ولشوقى بيت من الشعر لا يقل عن أبيات شاعرنا، قال :

وترى الجماجم فى التراب تشابهت * بعد العقول تشابه الأصداف

ولابن المعتز فى وصف خراب سر من رأى وهى مسقط رأسه — وكانت تنقض وتحمل أنقاضها الى بغداد ويعمر بها :

قد أقفرت سر من را فما لشىء دوام
فالنقض يحمل منها كأنها الآجام
ماتت كما مات فيل تسل منه العظام

هذا هو الشعر وهذا هو أبلغ تصوير لتقلب الأحوال وانتقالها وتساويها عند العدم.

قال امرؤ القيس :

« قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل »
« فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل »

أترك المصراع الأول وأكتفى الآن بما يسمونه " حشوا " وبودى أن يكون الحشو كله من هذا القبيل ... لأن تحديد منزل المحبوبة (بسقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة) أى من جهاتها الأربع هو فتح جديد فى الشعر العربى ، واذا لم نحدد معاهد الحب والصبابة ونسهب فى ذكر محتوياتها وآثار النعمة فيها . فأى شىء نحدد؟ إن حصاة البيت الذى درجنا فيه وحككنا جلدنا بأرضه لترجح بالدر والجوهر . ونوى البيت وأحجاره ليست أقل حسنا من آثار طيبة وممفيس وروما الشرائع والحكمة . ومنازل الأحباب وكل ما حواليها من أحياء ودور وخطوط وتعاريج ووجوه محبوب الى النفس .

من منا لا يذكر معهدا من المعاهد قضى فيه الطفولة والشباب — حيا كان أو قرية أو مدينة — ثم أقصتنا عنه الحياة سنينا ، ثم ساقتنا اليه ، من منا لا يذكر فى طريق عودته اليه تلك الإشراقة المفاجئة فى النفس وذلك الخفقان الذى يستولى على القلب حين يقف الموكب عند أقرب محطة أو حى من منازل الأحباب عند حدودها ... ... وكلها دخول وحومل ؟

والذى نحبه فى امرئ القيس أن خياله الشعرى يرتكز على أرض من الحقيقة ، وهو لا يصور هنا وانما يمثل بجلاء تمثيله كأروع تصوير ، وهذا الميل الى الحقيقة هو الذى حدا به الى سبق كتاب الافرنج فى مناح كثيرة ومنها هذا المنحى الذى نحن بصدده وهو وصف الحقيقة : البيت والدور والطابق وما يجده الداخل عن يمينه وعن يساره ومن خلفه ومن قدامه ... ووصف الحى والشارع المؤدى اليه ... والوجوه القديمة وما يعتورها من نعيم و بؤس ... ... وهلم جرا ، ويمكن القول إن هذه من أهم مميزات الروايات الحديثة وقد اكتسب بها الأدب الافرنجى ثروة عظيمة حتى أن بعض الروايات أصبحت مصدرا من أهم مصادر التاريخ الاجتماعى لأن هذه الروايات لم تقتصر على تحديد بيئة الحب وما اليها بل تعدتها الى الحياة العامة وخلقوا شخصيات وهمية من الرأسماليين ورجال المشاريع وغيرهم تتقلب وتتحرك فى بيئة حقيقية وصفوها بقضها وقضيضها .

وقد جرى امرؤ القيس نفسه فى معظم قصائده وتبعه فى ذلك جميع شعراء العرب من جاهليين و إسلاميين على سنة تحديد الأماكن وذكرها ، ولا نبالغ اذا قلنا إنه لولا هذه السنة التى سنها الشاعر لضاعت نصف جغرافية بلاد العرب ، إذ من المعلوم أن معجم ياقوت ومعجم البكرى كان الشعر مرجعهما الأول لوصف بلدان كثيرة على أنهما لم يستوعبا كل شيء ولا تزال العناية بدراسة شعراء كالمتنبي والبحترى

وأبي تمام مثلا من شأنها أن تساعد على تصحيح أسماء بلدان كانت معروفة فى العصر العباسى ولكنها وردت مغلوطة فى تواريخ الطبرى وابن الأثير .

ولماذا نذهب بعيدًا ؟ لقد حدث فى عهد محمد عليه السلام أن قوما اهتدوا الى عين ماء كان امرؤ القيس حدد موضعها فى شعره . روى أن قوما من اليمن أقبلوا يريدون الوفود على الرسول فضلوا الطريق ومكثوا ثلاثا لا يقدرون على الماء فاستظلوا بالطلح والسمر منتظرين الموت عطشا . فبينا هم فى آخر رمق إذ أقبل رجل ملثم بعمامته . فرفع رجل منهم صوته وأخذ يقول :

{ ولما رأت أن الشريعة همها — وأن البياض من فرائصها دامى }
{ تيممت العين التى عند ضارج — يفىء عليها الظل عرمضها طامى }

فقال الراكب : من يقول هذا الشعر ؟ قال : امرؤ القيس بن حجر ، قال : والله ما كذب هذا ضارج أمامكم ، فتحاملوا وجثوا على الركب حتى رأوا ماء غدقا وعليه العرمض ، وهو الطحلب ، والظل يفىء عليه ، فشربوا حتى ارتووا وحملوا منه معهم ، ولولا ذلك لهلكوا .

وصف امرؤ القيس الحمر الوحشية فقال انها لما رأت أن الذهاب الى الشريعة (وهى مورد الماء الذى ترده) قد يعرضها الى رمى الرماة فرائصها بالسهام وادمائها عدلت عنها الى العين التى عند ضارج (وهى موضع فى بلاد بنى عبس) وكانت هذه العين يفىء عليها ظل الطلح أو ما يشبهه من شجر الأودية العظام وعليها عرمض .

ويلاحظ أن امرأ القيس لم يكتف بتحديد موقع العين عند ضارج بل وصف العين نفسها وما يعلوها من عرمض وظل فمكن هذا التحديد الدقيق من الاهتداء اليها

ومما ساعد على انتشار شعر امرئ القيس أن معظمه يجرى فيه ماء الحضر وأن أسلوبه أرق أساليب الجاهلية كما أن أسلوب البحترى أرق أساليب الشعر الحديث وأنهما يلتقيان فى طلاوتهما وموسيقاهما وحسبنا أنهما نذكر أن السابق واللاحق منهما، وهما فى ذلك يشبهان الشاعر الفرنسى ليكونت دى ليل، شغوفان باختيار أجزل أسماء الأماكن وأرقها وأكثرها نغما ورنينا لانتظامها فى قطع من الشعر العذب المصفى . قال امرؤ القيس :

﴿ تراءت لنا بين النقا وعنيزة ... وبين الشجا مما أحال على الوادى ﴾

رواه ياقوت فى مادة عنيزة وعنيزة تنهية للأودية ينتهى ماؤها اليها، وهى على ميل من القريتين ببطن الرمة وهى لبنى عامر بن كريز . وبعث الحجاج رجلا يحفر المياه بين البصرة ومكة فقال له : احفر بين عنيزة والشجى حيث تراءت لتلك الضليل وأنشد البيت ثم قال . والله ما تراءت له إلا على الماء .

لم يقف امرؤ القيس عند قوله : "تراءت لنا بين النقا وعنيزة، وبين الشجى" بل زاد لتكميل البيت "مما أحال على الوادى" فتلفت البيت بعينين من السحر ... ... وكأنى به يرشدنا ارشاد الدليل ويقول : "سر الى المكان الفلانى بين كذا وكذا ثم عرج يمنة أو يسرة حيث ينشعب الطريق الى الوادى" وذلك كله بلغة الشعر والموسيقى .

ثم انظر الى قوله :

﴿ بعينى ظعن الحى لما تحملوا ... لدى جانب الأفلاج من جنب تيمرا ﴾ (١)

---

(١) الأفلاج جمع فلج، والفلج الماء الجارى من العين والنهر . وفلج مدينة بأرض اليمامة لبنى جعدة وقشير وكعب بن ربيعة . وفلج مدينة قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ويقال لها فلج الأفلاج . قال السكونى قال أبو عبيد ووراء المجازة فلج الأفلاج فهو ما بين العارض ومطلع الشمس تصب فيه أودية العارض وتنتهى اليه سيولها وهى أربعة فراسخ طولا وعرضها مستطيرة . قال أبو زياد يزيد بن =

فشبهتهم فى الآل لما تكمشوا حدائق دوم أو سفينا مقيرا[١]

أو المكرعات من نخيل ابن يامن دوين الصفا اللائى يلين المشقرا[٢]

فى البيت الأول حدد الضليل مكان تحمل الظعن — وهى هوادج النساء "لدى جانب الأفلاج" ثم حدد الجانب "من ناحية قيمرا" ثم شبه الهوادج المرتفعة على ظهور البعير بنخيل ابن يامن المكرعات — والمكرعات لفظة عذبة معناها النابتة على الماء الباسقة الجبارة "دوين الصفا اللائى يلين المشقرا" .

= عبد الله الحر فى نوادره إنما سمى فلج الأفلاج لأن به أفلاج كثيرة وأعظمها هذا الفلج لأنه أكثرها نخلا ومزارع وسيوحا جارية ، والأفلاج لبنى جعدة وفيها لبنى قشير والحريش موضع وكل ما يجرى سيحه من عين فهو فلج وكل جدول شق من عين على وجه الأرض فهو فلج أما البحور والسيول فلا تسمى أفلاجا ...

وقال أبو الدنيا فلج الأفلاج نخل لبنى جعدة كثير وسبوح تجرى مثل الأودية تنقب فيها قنى فتساح .

وقد روى ياقوت (الى جانب الأفلاج من بطن تيمرا) لا قيمرا . وقيمر بفتح القاف وضم الميم قلعة فى الجبل بين الموصل وخلاط ، أما تيمر بفتح التاء والميم . قال ياقوت قرية بالشام وقيل من شق الحجاز ، وذكر بيت امرئ القيس ...

(١) الآل السراب ، تكمشوا أسرعوا يقال كمشته تكميشا أعجلته . سفين المقير المطلى بالقار يمنع الماء أن يدخل .

(٢) ابن يامن اسم رجل كان له نخيل بهجر بفتح الهاء والجيم وهى بلاد قصبتها الصفا بينها وبين اليمامة عشرة أيام وبينها وبين البصرة خمسة عشر يوما على الإبل ، والصفا حصن بالبحرين وهجر . والمشقر واد بأجأ وقد قال امرؤ القيس فى قصيدته التى يذكر فيها الشام فذكر عدة مواضع ثم قال :

أو المكرعات من نخيل ابن يامن دوين الصفا اللائى يلين المشقرا

قال ياقوت ولعله شبه موضعا بالشام به أو أراد أنه رحل من هناك الى الشام ، وقال عرقطة بن عبد الله المالكى ثم الأسدى :

لقد كنت أشقى بالغرام فشاقنى بليلى على بنيانت حال مقدر

فقلت وقد زال النهار كوارع من التاج أو من نخل يثرب موقر

أو المكرعات من نخيل بن يامن دوين الصفا اللائى يحف المشقر

فى هذه الأبيات كلمة واحدة لا استعارة ولا تشبيه فيها تعدل فى الحسن "بيضة الخدر" و" قيد الأوابد " هى كلمة " بعينى " ... يقول إن ظعن الحى سارت بمرأى منه ومنظر أو كما يقول الفرنسيون للتأكيد " رأيت بعينى رأيت " . ولكن " بعينى " هنا فيها من الايجاز والملاحة ما فيها .

ولا ريب أن امرأ القيس هو الوحيد من بين شعراء الجاهلية الذى ينحت قوافيه وألفاظه من خير مقطع و يتخيرها ويطرب لها و" ظعن الحى " من روائع كلماته ، كان المرحوم إسماعيل باشا صبرى ينتق الكلمة ويفرح بها فرح الغواص بالدرة ، وكلمة الحى التى يحبها امرؤ القيس كانت من مختاره المأثور :

يا آسى الحى هل فتشت فى كبدى وهل تبينت داء فى زواياها

هل عند ذاك السرب أنا بعده فى الحى من آماقنا نتدفق

وقال امرؤ القيس :

ولما بدت حوران والآل دونها نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا
تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة[(١)] وشيزرا

حدد الشاعر الأمكنة التى يمر بها الركب وزاد هنا فحدد عواطف و إحساسات المسافر فى مراحله المختلفة فابتدأ بقوله " ولما بدت حوران ... والآل — أى السراب — دونها ولعله هنا سراب بقيعة وسراب فكر ... ثم حدد بالدقة الزمان والمكان لانقطاع الأمل وتقطع أسباب اللبانة والهوى : " عشية جاوزنا حماة[(١)] وشيزرا " فى الطريق الى قيصر الروم

(١) حماة : مدينة كبيرة عظيمة على نهر العاصى عليه عدة نواعير تسق الماء من العاصى فتسقى بساتينها وتصب الى بركة جامعها . وهى مدينة قديمة جاهلية ذكرها امرؤ القيس فى شعره (وهنا ذكر ياقوت —

وقال أيضاً :

﴿ لمن الديار غشيتها بسحام   فعمايتين فهضب ذى إقدام ﴾

﴿ فصفا الأطيط فصاحتين فغاضر[1]   تمشى النعاج بها مع الآرام ﴾

﴿ دار لهند والرباب وفرتنا   ولميس قبل حوادث الأيام ﴾

﴿ عوجا على الطلل المحيل لعلنا   نبكى الديار كما بكى ابن حذام ﴾

لو وضعت هذه الأبيات فى ديوان أكبر شعراء الحضر لما ميزناها عن شعر

بل إن قوله :

﴿ دار لهند والرباب وفرتنا   ولميس قبل حوادث الأيام ﴾

لا يختلف فى نسجه ورقته عن قول أبى نواس :

يادارُ ما فعلت بك الأيام   لم تبق فيك بشاشة تُستام

= البيت) باختلاف يسير، وشيزر قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم فى وسطها نهر الأردن أوله من جبل لبنان وهى قديمة ذكرها امرؤ القيس . وقال عبد الله بن قيس الرقيات :

فوا حزنا إذ فارقونا وجاوروا   سوى قومهم أعلى حماة وشيزرا

(١) صاحتان قال ياقوت تثنية الذى قبله (صاحات) موضع آخر قال امرؤ القيس ... وجاء فى مادة صاحة اسم جبل أحمر بالركاء والدخول ويجوز أن يكون من الصوح جانب الجبل وقيل الصوح وجه الجبل القائم كأنه حائط صوح، وغاضر لا ذكر لها فى ياقوت الذى يروى البيت :

فصفا الأطيط فصاحتين فعاسم   تمشى النعاج به مع الآرام

وعاسم اسم مكان لكلب بأرض الشام بقرب الخسر . وقال نصر عاسم رمل لبنى سعد . وفيه يقول نافذ بن سعد المعنى :

وإن بعين ان تخرت لمفخرا   وفى غيرها تبنى بيوت المكارم

فقد بزمام يظر أمك واحتفر   بأير أبيك الفسل كراث عاسم

قيل كان أحد جديه جمالا والآخر حراثا فلذلك قال فقد بزمام يظر أمك واحتفر الكراث .

ولقد صرح امرؤ القيس بأن ابن حذام هو أول من بكى الديار وأوجد لنا ينبوعا جديدا من خيرة ينابيع الشعر الغنائى العربى فى صفائه وعذوبة مائه ، ولكن الفضل الأكبر فى ذلك يرجع الى امرئ القيس الذى أخرج لنا من ذلك الينبوع بحرا مذ قال (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) وهى أكبر صيحة للحب فى وجه الفناء ... وستبقى خالدة ما بقى للانسان قلب يخفق ويتعلل بالذكر والمنى .

ثم هذا البيت المملوء بالنضارة والغضارة :

« فصفا الأطيط فصاحتين فغاضر تمشى النعاج بها مع الآرام »

وعلى البيت مسحة من البداوة والحضارة تلمسها فى بيت البحترى :

لله عهد سويقة ما أنضرا إذ جاور البادون فيه الحضرا

وتحديدات امرئ القيس لا حصر لها وأكثرها يتعلق بأماكن الأحباب ومنازل الطبيعة ومناظرها .

وقد اهتدى امرؤ القيس الى كل ذلك بالفطرة والطبع ووحى العبقرية ، وهو يتوخى دقة الكاتب مع السلاسة والجزالة والايجاز وينطبق عليه ما قاله أحد كبار النقاد عن شعر البحترى : "كتابة معقودة بالنظم" ، ولا تكاد تخلو له قصيدة أو بيت من هذه الدقة وذلك الاعجاز مع السهولة المتموجة بالسحر . قال يصف ماء شجت به الخمر :

« بماء سحاب زل عن متن صخرة الى بطن أخرى طيب ماؤها خصر »

يقول إن ماء السحاب "زل عن متن صخرة الى بطن أخرى" وهذا منتهى ما يرجى للماء العذب النقى ... ولا أظن الكتاب يستعملون أسلوبا أدق وأفصح من ذلك الأسلوب .

وقال يصف مرقبة عالية يرقب منها الصيد :

﴿ ومرقبـة كالزج أشرفت فـوقها أقلب طـرفى فى فضـاء عريض ﴾ (١)

فشاعرنا، كما ترى ، مولع بعظمة الطبيعة ومناظرها الهائلة وفضائها الواسع وهو يحب من العقاب انقضاضها من أعلى قمة :

﴿ كتيس الظباء الأعفر انضرجت له عقاب تدلت من شماريخ ثهلان ﴾ (٢)

وقال أيضا :

﴿ كأن دثارا حلقت بلبونه عقاب تنوفى لا عقاب القواعل ﴾ (٣)

---

(١) المرقبة : موضع يرقب منه الربيئة وهو أعلى رأس الجبل وفى الطول والرقة والانحدار كزج السهم أو الحديدة التى فى أسفل الرمح ، يريد أنه ربيئة لأصحابه فى هذا الموضع المشرف المنيف يرقب أعداءه من جميع النواحى .

(٢) تيس الظباء فحل الظباء . والأعفر من الظباء ما يعلو بياضه حمرة ، وقيل الذى فى سراته حمرة وأقرابه بيض وفى الجوهرى العفر من الظباء التى يعلو بياضها حمرة قصار الأعناق وهى أضعف الظباء عدوا تسكن القفاف وصلابة الأرض . انضرجت العقاب انقضت على الصيد . وتدلت من دلى الشىء فى المهواة أرسله فيها قال :

من شاء دلى النفس فى هوة ضنك ولكن من له بالمضيق

أى بالخروج من المضيق وتدليت فيها وعليها قال لبيد يصف فرسا :

فتدليت عليها قافلا وعلى الأرض غيابات الطفل

أراد أنه نزل من مربائه وهو على فرسه راكب ، ولا يكون التدلى إلا من علو إلى استفال . والشماريخ جمع شمراخ الشكال عليه بسر أو عنب وهنا رأس الجبل .

(٣) قال ياقوت تنوف موضع فى جبال طيئ وكانوا قد أغاروا على إبل امرئ القيس بن حجر من ناحيته فقال :

كأن دثارا حلقت بلبونه عقاب تنوف لا عقاب القواعل

وقال أبو سعيد رواه أبو عمرو وابن الأعرابى عقاب تنوف وروى أبو عبيدة تنوفى بكسر الفاء ورواه أبو حاتم تنوفى بفتح الفاء وقال أبو حاتم هو ثنية فى جبال طيئ مرتفعة والنحويين فيه كلام . =

وعقاب تنوفى عقاب ساقطة من ثنية مشرفة ذاهبة فى الهواء لارتفاعها وعقاب القواعل هى عقاب الجبال الصغيرة

وهو فى تصويره للحيوان والطير يترسم جميع حركاتها وتشكلاتها وألوانها فى جريها ووقوفها، فى رقادها ويقظتها، فى نهزتها واستكانتها .

قال يصف حمارا وحشيا :

(كأنى ورحلى فوق أحقب قارح بشربة أو طاو بعرنان موجس)[1]

(تعشى قليــلا ثم أنحى ظلوفــه يثير التراب عن مبيت ومكنس)[2]

(يهيــل ويذرى تربهــا ويثيره إثارة نبــاث الهــواجر مخمس)[3]

= ودثار هو راعى إبل امرئ القيس والبون الوق التى يرعاها ويحلبها . وحلق الطائر ارتفع فى طيرانه واستدار كالحلقة قال النابغة :

إذا ما التقى الجمعان حلق فوقهم عصائب طــير تهتدى بعصائب

وفى الحديث نهى عن بيع المحلقات أى بيع الطير فى الهواء . القواعل، يقال قوعل الرجل قعــد على القوعلة وهى الجبيل الصغير وقعل الأكمة الصغيرة . وعقاب قوعلة وعقاب قوعلة تأوى الى القوعلة وتعلوها .

(١) الأحقب حمار الوحش سمى بذلك لبياض فى حقويه . والقارح الذى شق نابه وطلع وهو بمنزلة البازل من الإبل . شربة موضع لم يستدل عليه ياقوت إلا ببيت امرئ القيس . أو طاو أو (ثور وحشى) يطوى البلاد . موجس منصت متسمع لكل نبأة . وعرنان جبل بين تيماء وجبلى طيئ، وقال نصر عرنان ذ يلى بجبال صبح من بلاد فزارة ، وقيل رمل فى بلاد عقيل ، وقيل اسم واد معروف ، و يوصف عرنان بكثرة الوحش، قال القتال الكلابى :

رما منـــزل من وحش عرنان آلفته بســـتها أخلت عليهـا الأواعس :

(٢) تعشى قليلا أى بقى قليلا بالعشى وهو أول الليل . والظلوف الحوافر . والمكنس المبيت يقــال تكنس الظبى بمعنى كنس وتكنس الرجل دخل فى الخيمة وتكنست المــرأة دخلت فى الهودج واكتنست الظباء والبقر دخلت فى الكناس .

(٣) الهاجرة : نصف النهار فى القيظ ونباث من نبث . يقال نبث البئر ينبثها : نبشها وأخرج ترابهــا ونبث التراب استثاره أو استخرجه . والمخمس الذى وردت إبله خمســا (بكسر الخاء) والخمس فى إظماء الإبل =

{ فبات على خد أحم ومنكب * وضجعته مثل الأسير المكردس }(١)
{ وبات الى أرطاة حقف كأنها * إذا ألثقتها غبية بيت معرس }(٢)

إذا أردنا أن نتبين شخصية امرئ القيس ومميزاتها فلنقارن بين هذه الأبيات وبين الأبيات التي قالها بشر بن أبي خازم من نفس البحر والروى في وصف حمار وحشي :

كأني وأقتادي على حمشة الشوى * بحربة أو طاو بعسفان موجس(٣)

= وهو أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع (سوى اليوم الذي شربت فيه) ، وكانت العرب تفعل ذلك لتعويد إبلها الظمأ في الأسفار . ونباث الهواجر المخمس هو الذي يزيح تراب الهاجرة لتحس إبله برد الثرى فيسكن عنهن العطش ، قال الأصمعي قال رؤبة كان أبي يقول ما وصف الثور الوحشي بأحسن من هذا في هذا البيت .

(١) خد أحم حار وقيل أسود والمكب مجتمع رأس الكتف والعضد . المكردس يقال تكردس انقبض واجتمع بعضه إلى بعض وكردس الرجل مجهولا جمعت يداه ورجلاه وكردس الشيء أوثقه وقيده فالمكردس هنا معناها المقيد المجتمع بعضه إلى بعض البارزة أعضاؤه .

(٢) أرطاة واحدة الأرطى وهو شجر نوره كنور الخلاف وثمره كالعناب . والحقف ما اعوج من الرمل واستطال ، وحقف الشيء اعوج وحقف الظبي حقوفا : ربض في حقف من الرمل وقيل كان منطويا كالحقف وقد انحنى وتثنى في نومه . والغبية المطرة غير الكثيرة أو الدفعة الشديدة والغبية الصب الكثير من الماء . وألثقتها بللتها وندتها . والمعرس الذي اتخذ عرسا .

(٣) القتد خشب الرحل وقيل جميع أدواته ، والشوى اليدان والرجلان والأطراف . وحمشة من حمش فلانا هيجه وأغضبه وحمشت الساق : دقت وحمش القدر (بتشديد الميم) أشبع وقودها حتى تغلي وحمش النار قواها بالحطب حتى التهبا ، وحربة بلفظ الحربة التي يطعن بها ، قال نصر رملة منقطعة قرب وادي واقصة من ناحية الثقف من الرغام . وقال ثعلب حربة رملة كثيرة البقر كأنها في بلاد هذيل ، قال أبو ذؤيب الهذلي :

في ربرب يلق حور مسدامعها * كأنهن بجنبي حربة البرد

وقال أمية بن أبي عائذ الهذلي :

وكأنها وسط النساء غمامة * فرعت بريقها نشيء نشاص
أو جأبة من وحش حربة فردة * من ربرب مرج ألات صياصي

تمكث شيئا ثم أنحى ظلوفه (١) يثير التراب عن مبيت ومكنس

أطاع له من جو عرنين بارض (٢) ونبذ خصال فى الخمائل مخلس

فمن ناحية الأسلوب يلاحظ أن امرأ القيس أعلى نفسا وأعظم روعة ، ومن ناحية التصوير يحلق الأول ويسف الثانى ، ولم يكتف امرؤ القيس بقوله (يثير التراب عن مبيت ومكنس) ولكنه أراد الالمام بجميع أشكال إثارة التراب واطراد ظلوف الحمار اطرادا قويا وهى حركة دراماطيقية :

(يهيل ويذرى تربها ويثيره إثارة نباث الهواجر مخمس)

ثم التفت امرؤ القيس الى هيئته وهو راقد فى مبيته فجاء بوصف لا يعلوه تمثيل أكبر مصور أو نحات فى الصخر :

(فبات على خد أحم ومنكب وضجعته مثل الأسير المكردس)

= قال السكرى — مرج — لا يستقر فى موضع واحد والجأبة — الغليظة من بقر الوحش وعسفان قال أبو منصور منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة ، وقيل عسفان قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع على ستة وثلاثين ميلا من مكة وهى حد تهامة ومن عسفان إلى ملل يقال له الساحل وملل على ليلة من المدينة وهى لخزاعة خاصة ، وقال اعرابى :

لقد ذكرتنى عن جناب حمامة بعسفان أهلى فالفؤاد حزين

نويحك كم ذكرتنى اليوم أرضنا لعلى حمامى بالحجاز يكون

فوالله ما أنساك ما هبت الصبا وما اخضر من عود الأراك فنون

(١) وتمكث بالمكان : تلبث .

(٢) عرنان سبق ذكره . والجو ما اتسع من الأودية . والبارض نبت الأرض . والخصلة طرف القضيب الرطب وما رخص من قضبان العرفط . والنبذ الشىء القليل اليسير يقال بأرض كذا نبذ من مال ومن كلأ . مخلس من أخلس النبت : اختلط رطبه بيبسه ، كأن بعضه أخضر وبعضه يابسا . والخميلة المنهبط من الأرض ، والشجر الكثير الملتف والموضع الكثير الشجر خمائل وقيل غابة ذات أشجار كثيرة ملتفة .

وأن حجارة (ميكلانج) التي تمثل الأسرى المقيدين وتبين عن أضلاعهم البارزة وأجسامهم الداخل بعضها فى بعض بعنف وقوة لا تزيد جمالا عن شعر امرئ القيس فى ضجعة حماره الوحشى .

ثم لم يكتف شاعرنا بذكر مبيته الذى هيأه لنفسه فى التراب بل نظر الى ما يحيط بذلك المبيت فقال :

(وبات الى أرطاةِ حقف كأنها   اذا ألثقتها غَبْيَــةٌ بيت معْرس)

فامرؤ القيس يحب تحديد الأماكن ويحب الطبيعة من غابة النخيل أو الشجر الشجراء الى أرطاة الحقف الوادعة فى جمالها وعزلتها .

وهــذه الأرطاة تذكرنا بالودية (النخلة الصغيرة) التى دفن الى جانبها الحارث ابن حبيب :

(ثوى عند الوَدِيَّة جوف بُصْرَى   أبو الأيتـام والكَلِّ العـجاف)[1]

وبذلك أعطى لنا شاعرنا من حركة الحمار الوحشى وضجعته ومبيته صورة حية كاملة، ثم نظر الى مُصْبَحِهِ فوصف كلاب الصـيد وهى تتعقبه فكان فى طردياته أروع من النابغة وزهير اللذين "طبعا على غراره وترسما خطاه" بل من أبى نواس :

(فصبّحه عنــد الشـروق غُـدَيَّةً   كلابُ بنِ مُرٍّ أو كلاب ابن سِنْبِس)[2]

(مُغَــرَّثَةً زُرقا كأن عيونهـا   من الذَّمْرِ والايحـاء نُوّارُ عضرس)[3]

(فأدبر يكسـوها الرغـام كأنـه   على الصُّمْد والآكام جَذوة مُقبس)[4]

(١) ثوى أقام حتى لا يراح . الودية النخلة الصـغيرة . بجوف بصرى : فى بطن نحو المعروف ببصرى بالشام على طرف البرية . والكل ما يحمل . العجاف : المهازيل .

(٢) غدية تصغير غدوة : أول النهار . وابن مر وابن سنبس صائدان .

(٣) الذمر اللوم والحض معا والذمر الحث مع لوم واستبطاء . والايحاء الإشارة فى الصيد بحلات خفية . ونوار العضرس زهر بقلة حمراء .

(٤) الصمد : المكان المرتفع الغليظ .

﴿ وأيقن إن لاقينه ان يومه بذى الرمث[(١)] أو ماوتنه يوم أنفس ﴾
﴿ فأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس[(٢)] ﴾
﴿ وغورن فى ظل الغضى وتركنه كفحل الهجان القادر المتشمس[(٣)] ﴾

(١) الرمث بكسر أوله وسكون ثانيه مرعى من مراعى الإبل وهو من الحمض ، واسم واد لبنى أسد .
قال دريد بن الصمة :

ولولا جنون الليل أدرك ركضنا بذى الرمث والأرطى عياض بن ناشب

وقال لبيد :

بذى شطب أحداجها قد تحملوا وحث الحداة الناعجات الذواملا
بذى الرمث والطرفاء لما تحملوا أصيلا وعاين الحمول الحوافلا

ويومه أى حينه وموته .

(٢) النسا عرق من الورك إلى الكعب وعن الأصمعى النسا عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الحافر فاذا سمنت الدابة انفلق فخذاها بلحمتين عظيمتين وجرى النسا بينهما واستبان وإذا هزلت الدابة اضطربت الفخذان وماجت الركبتان وخفى النسا . وشبرق الثوب قطعه ومزقه والمقدس رواية الديوان قال شارحه الراهب الذى يأتى بيت المقدس حاجا ، وجاء فى اللسان :

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدسى

القدس البركة والأرض المقدسة الشام منه وبيت المقدس من ذلك أيضا فاما أن يكون على حذف الزائد وإما أن يكون اسما ليس على الفعل كما ذهب إليه سيبويه فى المنكب وهو يخفف ويثقل والنسبة إليه مقدسى مثال مجلسى ومقدسى كما ورد فى بيت امرئ القيس ، قال ابن منظور : أدركت الكلاب الثور فأخذن بساقه ونساه وشبرقت جلده كما شبرق ولدان النصارى ثوب الراهب المقدسى وهو الذى جاء من بيت المقدس فقطعوا ثيابه تبركا بها ، وقيل يعنى بهذا البيت يهوديا ويقال الراهب مقدس وأراد فى هذا البيت بالمقدسى الراهب وصبيان النصارى يتبركون به ويمسح مسحه الذى هو لابسه وأخذ خيوطه منه حتى يتمزق عنه ثوبه والمقدس الحبر وحكى ابن الأعرابى لا قدسه الله أى لا بارك عليه قال والمقدس المبارك والأرض المقدسة المطهرة وقال الفراء الأرض المقدسة الطاهرة وهى دمشق وفلسطين وبعض الأردن .

(٣) فحل الهجان الجمل الضروب . والقادر من قدر يقال قدر الفحل يقدر فهو قادر فتر وانقطع وجفر عن الضراب وعدل ، ابن الاعرابى يقال للفحل اذا انقطع عن الضراب قدر وفدر وأفدر وأصله فى الابل . والمتشمس المتصب للشمس .

قلت إن امرأ القيس لا يرسم إلا صورة كاملة فاذا وصف طردية كهذه ذكر لك أولا أن الكلاب مغرثة كناية عن شدة طلبها للصيد، وذكر أنها زرق الأجسام وأنها محمرة الأعين من كثرة الايحاء والدمر ...

ثم نظر فى الطرف الثانى من المطاردة فقال إن الثور فى إدباره يثير التراب فى وجه الكلاب المتعقبة وانه يعدو على الصمد والآكام ملتهب الجسم من شدة جريانه ثم وصف حركات الكلاب حين أمسكت بالحمار الوحشى :

(فأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس)

(وغوّرن فى ظل الغضى وتركنه كفحل الهجّان القادر المتشمّس)

وفى البيت الأخير يسدل الستار على المطاردة بعد أن عرضت مناظرها المختلفة عرضا رائعا .

ولامرئ القيس طردية أخرى فى بائيته المشهورة (خليلى مرا بى على أم جندب) . روى الأصمعى أن امرأ القيس تزوج امرأة من طيئ تسمى أم جندب، فلما بات عندها لم تحمده ففركته، فلما كان فى بعض الليل قامت وقالت : أصبحت ياخير الفتيان فقم . فاذا الليل لم يذهب منه إلا أقله فقال لها : ما حملك على ما فعلت؟ فسكتت . فألح عليها فقالت : كرهتك لأنك ثقيل الصدر، خفيف العجز، سريع الاراقة، بطيء الافاقة ، ونزل به علقمة الفحل فتذاكرا الشعر وادّعاه كل واحد منهما على صاحبه ، فقال له علقمة . قل شعرا تمدح فيه فرسك والصيد، وأقول مثله ، وهذه الحَكَم بيني وبينك . فقال امرؤ القيس قصيدته، وقال علقمة قصيدته التى أولها :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقا كل هذا التجنب

وهى التي غالب بها امرأ القيس وفضلتها أم جندب . ومن الغريب أن أروع أبيات علقمة موجودة فى قصيدة امرئ القيس وعليها طابعه . فحكم أم جندب، إن صحت الرواية، لا يعتد به .

وقصيدة ابن حجر هذه من الشعر الحى وكلها درر وغرر، ومن رائع التصوير فيها قوله فى وصف حوافر الفرس :

﴿ ويخطو على صُمٍّ صِلاب كأنها حجارة غَيْل وارساتٌ بطحلب ﴾ (١)

فان ملاحظة دقائق تفصيلية خاصة بتغير لون الحافر من أثر الروث لا تقع إلا لريشة (بولس بُوتّير) وهو أكبر مصور حيوانى فى العالم . ومن غريب الشبه بين امرئ القيس ومصورنا أن كليهما تجلى عنده العاطفة الإنسانية فى كل ما يرتسم فى لوحته مما جعل لآثارهما تلك المنزلة الخاصة فى نفوس الأجيال، وهذه العاطفة تجيء عفوا وتفجؤنا على غير انتظار ... وهاهو امرؤ القيس يصف الصيد فيقول :

﴿ وظل لصيران الصريم غماغم يداعسها بالسمهرى المُعلَّب ﴾ (٢)

﴿ فهاوٍ على حر الجبين ومتق بمدراته كأنها ذَلْقُ مِشعب ﴾ (٣)

---

(١) يخطو على صم صلاب يريد حوافره . والغيل كل واد فيه عيون تسيل وكل موضع فيه ماء . وارسات من ورست الصخرة فى الماء تورس ورسا : ركبها الطحلب حتى تخضار وتملاس كقوله « حجارة غيل وارسات بطحلب » (اللسان) .

(٢) صيران جمع صيار وصوار وهو القطيع من البقر . والصريم القطعة من معظم الرمل أو الأرض السوداء لا تنبت شيئا . والغمغمة واحدة الغماغم وهى أصوات الثورة عند الذعر والأبطال عند القتال . والمداعسة المطاعنة والسمهرى الرمح والمعلب من علب السيف ونحوه : حزم مقبضه بعلباء البعير وهو مشدود بالعلباء عند قائمه والعلباء عصبة صفراء فى صفحة العنق وهما علبا وان بينهما منبت العرف .

(٣) المدراة القرن والذلق الحد كأنه ذلق لسان أى طرفه والمشعب المثقب .

ففى هـذين البيتين صورة عامة دقيقة للمركة تشف عن عاطفة الشاعر حين يذكر غماغم الثيران عند المداعسة وانكبابها على وجهها أو ما هو أروع : انكبابهـا على حر الجبين ...

ومثل هـذا الشعر، الذى يجمع بين الوصف الذى لا يدانى والعاطفة قوله فى حمار وحشى :

(أذلك أم جَـونٌ يطـارد آتُنـا حملن فأدنى حملهن دروص)[1]

(طواه اضطهار الشدّ فالبطن شاذب مُعَـالًى إلى المَتْنَين فهـو خميص)

(بحاجبه كدح من الضرب جالب وحارِكه من الكِدام حصـيص)

يقول إن الحمار الوحشى يطارد حُمرًا حملن فأدنى حملهن أجنـة فى بطونها ... وهنـا يبدو احساس الشاعر فى أبلغ تعبير، وبعد أن ذكر أن الحمار ضامر مكتنز اللحم من شدّة الجرى والكفاح مع خموص البطن (فالبطن شاذب معالى الى المتنين) أتى امرؤ القيس باحدى دقائق وروائع بوتيره فى قوله :

(بحاجبه كدح من الضرب جالب وحاركه من الكـدام حصيص)

يقول : إن بحاجبه أثرا من الضرب لم يبرأ بعد وان أعلى الكاهل من أثر العض منحول الشعر .

---

(١) الدرص بكسر الدال جنين الأتان . والجون الأسود المشرب حمرة والجون الأحمر الخالص والجون الأبيض . وأنشد ابن برى شاهدا على الجون الأبيض قول لبيد :

جـون بصـارة أقفرت لمـزاده وخلاله الســوبان فالبرعـوم

قال الجون هنا حمار الوحش وهو يوصف بالبياض .

ومن تصويراته (اليوتيرية) البحتة أيضا قوله فى ظليم :

(كأنى ورحلى والقراب ونمرقى ... على يرقئٍ ذى زوائد نِقنِق)[1]

(تروح من أرض لأرض نطية ... لذكرة قيض حول بيض مفلق)[2]

(يجول بآفاق البلاد مغربا ... وتسحقه ريح الصبا كل مسحق)

صوّر لنا امرؤ القيس ببيانه الملهم صورة ذلك الظليم وهو يجرى من أرض لأرض بعيدة لذكرة فلق البيض التى ترك فراخه تتقفها وتخرج منها ، والبيت الأخير وان كان وصفا لجواده إلا أن فيه إشارة الى الظليم ، والشعر فى كليهما ينضح بالعاطفة الدقيقة التى تجيء لحنا ... وقوله (وتسحقه ريح الصبا كل مسحق) من الكلم الساحر .

و (تسحقه) ليس معناها، كما ذكر الشراح، تبعده الى مكان سحيق، ولكن معناها تدق دقا رقيقا أو دقا بعد دق، وقيل السحق دون الدق، الأزهرى سحقت الريح الأرض وسهكته اذا قشرت وجه الأرض بشدة هبوبها، ابن سيده سحقت الريح الأرض اذا عفّت الآثار وانتسفت الدقاق ، والسحق الثوب الخلق البالى .

فقوله (وتسحقه ريح الصبا) فيه من سمو العاطفة والتعبير ما فيه . وفيه من جمال الخيال ودقة الحس ما لم يوفق الى مثله عنترة فى بيته المشهور :

وازورّ من وقع القنا بلبانه ... فشكى الىّ بعبرة وتحمحم

و بينا يلوح بيت امرئ القيس بين مناظر الطبيعة وهبوب صباها ... يقف بيت عنترة فى أرض جرداء .

---

(١) اليرقئ المنزع القلب فزعا واليرقئ الظليم النافر وأيضا الظبى القفوز المولى . ذو زوائد ذو عدو مريع . النقنق من نق الظليم والدجاجة والرخمة والضفادع تنق نقيقا ونقنق صوت ، والدجاجة تنقنق ولا تنق لأنها ترجع فى صوتها ومنه قول يزيد بن الحكم (ضفادعها غرقى لهن نقيق) وقيل هو صوت يفصل بينه مد وترجيع . والنقنق الظليم .

(٢) القيض القشرة العليا اليابسة على البيضة والقيض هى التى خرج ما فيها من فرخ أو ماء .

والواقع أن امرأ القيس وصاف قد سما في تصويره سموًا ، وقد هدته الفطرة والسليقة والحاسة القوية الكبرى وكثرة مشاهداته الى مذاهب في القول لم يهتد اليها غيره، وقد تملّت نفسيته بالطبيعة وأشكالها وتملّت الطبيعة بها وهو يلاحظ ما دق فيها وما جل من مظاهر الحياة والفناء من الأفق العريض الى عيون الوحش المتفرقة حول الخباء كالخرز ... الى قلوب الطير المساكين المبعثرة كالحشف البالي ... الى رؤوس السباع الغرقى ... قال يصف مطرا :

(علا قَطَنًا بالشيم أيمنُ صَوْبه وأيسرُه على السّتار فيَذْبُلُ)(1)

---

(1) قطن جبل لبنى أسد وهو الذى ذكره امرؤ القيس ، قال ابن السكيت قطن جبل لبنى عبس كثير النخل والمياه بين الرمة وبين أرض بنى أسد وذكرعنه أيضا أنه قال قطن جبل فى ديارعبس بن بغيض عن يمين النباج والمدينة بين أثال وبطن الرمة . قال كثير :

فانك عمرى هل أريك ظعائنا بصحن الشتا كالدوم من بطن تريما
نظرت إليها وهى تنضو وتكتنى من القفر آلاء فما زال أقتما
وقد جعلت أشجان برك يمينها وذات الشمال من مريخة أشاما
موليــة أيسارها قطن الحمى تواعدن شربا من حمامة معظما

وقال الواقدى قطن ماء ويقال جبل من أرض بنى أسد بناحية فيد .

والستار قال أبو زياد الكلابى هى جبال مستطيلة طولا فى الأرض ولم تطل فى السماء وهى مطرحة فى البلاد والمطرحة أنك ترى الواحد منها ليس فيها واد ولا مسيل ولست ترى أحدا يقطعها ويعلوها . والستار جبل بأجأ ، والستار جبل بالعالية فى ديار بنى سليم حذاء صفية ، والستاران فى ديار بنى ربيعة واديان يقال لها السودة يقال لأحدهما الستار الأغبر وللآخر الستار الجابرى وفيها عيون قوارة تسق نخيلا كثيرة . قال الشاعر (علا قطنا بالشيم ... ...) .

ويذبل جبل مشهور الذكر بنجد فى طريقها ، قال زياد جبل لباهلة مضارع ذبل اذا استرخى وله ذكر فى شعرهم . امرؤ القيس ... وقال النابغة الجعدى :

فان كنت تبغاء لتقل مجدنا لسيرة فانقل ذا المناكب يذبلا

﴿ وأضحى يسح الماء عن كل فيقة (١) يكب على الأذقان دوح الكنهبل ﴾
﴿ كأن مكاكى الجواء غدية صبحن سلافا من رحيق مفلفل ﴾
﴿ ومر على القنان من نفيانه فأنزل منه العصم من كل موئل ﴾
﴿ وتيماء (٢) لم يترك بها جذع نخلة ولا أطما الا مشيدا بجندل ﴾
﴿ كأن أبانا فى أفانين ودقه كبير أناس فى بجاد مزمل ﴾
﴿ كأن ذرى رأس المجيمر غدوة من السيل والأغثاء فلكة مغزل ﴾
﴿ كأن سباعا فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل ﴾
﴿ وألقى بصحراء الغبيط بعاعه نزول اليمانى ذى العياب المحمل ﴾

يقول : إن البرق علا جبل قطن ولكن أيمن مطره وأيسره بالنظر كان يقع على جبلى الستار فيذبل ، وكان الماء من شدته يكب دوح الكنهبل — وهو أعظم الشجر وأصلبه — وكان تجمع الماء الغزير المنهمر مدعاة لتجمع طير المكاكى الذى

(١) الفيقة من فيق وروى ابن الأثير فى هذا المكان فى حديث أم زرع وترويه فيقة البقرة ، الفيقة بالكسر اسم اللبن الذى يجتمع فى الضرع بين الحلبتين ، ومعناها هنا السحابة ومصب الماء ، ويسح يصب .

(٢) تيماء من أعذب أسماء الأمكنة عند العرب . وهى بلد فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى على طريق حاج الشام ودمشق ، والأبلق الفرد حصن السموءل عاديا اليهودى مشرف عليها فلذلك كان لها تيماء اليهودى . ولما بلغ أهل تيماء فى سنة تسع وطء النبى صلى الله عليه وسلم وادى القرى أرسلوا وصالحوه على الجزية وأقاموا ببلادهم وأرضهم فلما أجلى عمر اليهود عن جزيرة العرب أجلاهم قال الأعشى :

ولا عاديا لم يمنع الموت ماله وورد بتيماء اليهودى أبلق

وقال بعض الأعراب :

الى الله أشكو لا الى الناس أننى بتيماء تيماء اليهود غريب
وانى بتهباب الرياح موكل طروب إذا هبت على جنوب
وان هب علوى الرياح وجدتنى كأنى لعلوى الرياح نسيب

يغرد كالنشوان الطروب تغريدا بعد تغريد، ثم وصف الشاعر ناحية أخرى غمرها السحاب فقال إنه مر على القنان — وهو جبل فى بلاد بنى أسد بن خزيمة — فأنزل العصم — وهى الطيور المعتصمة بالقمم — من كل موئل من أماكنها الشامخة فى أعالى الجبال، ولم يترك بتيماء جذع نخلة ولا قصرا إلا ما كان مبنيا بالصخور. ذكر بعد ذلك (المجيمر) وهو جبل ويقول الزوزنى إنه أكمة (يقول) كأن هذه الأكمة غدوة مما أحاط بها من أغثاء السيل — والأغثاء كل ما يجىء به من شجر وحشيش وكلا وتراب — فلكة مغزل، شبه استدارة هذه الأكمة بما استدار بها من الأغثاء باستدارة فلكة المغزل وأحاطتها بها باحاطة المغزل. وقد راعى امرؤ القيس بين هذه الأغثاء منظر السباع الغرق ورؤوسها طافية كأنها أنابيش عنصل، وهى أصول البصل البرى ورؤوسه وسميت أنابيشا لأنه ينبش عليها، يريد أنه كان من الصعب التميز بين رؤوس السباع الغرق وأنابيش العنصل التى كان يحملها السيل مع أغثائه.

وصف امرؤ القيس أثر المطر وسيله الجارف فذكر آثار التخريب والتغير التى أحدثها فى البلاد كما يفعل كتاب اليوم، ثم ختم وصفه بذكر النبات الذى أنبته والخضرة التى نضر بها الجدب :

﴿ وألقى بصحراء الغبيط بعاعه نزول اليمانى ذى العياب المحمل ﴾

صحراء الغبيط حزن من الأرض لبنى يربوع على حد قول بعض الشراح، وفى رأى الزوزنى الغبيط هنا أكمة قد انخفض وسطها وارتفع طرفاها وسميت غبيطا تشبيها بغبيط البعير، يقول ألقى السحاب ثقله على تلك الأكمة أو ذلك الحزن لبنى يربوع فأنبت الكلأ وضروب الأزهار وألوان النبات فصار نزوله بها نزول التاجر اليمانى صاحب العياب المحمل بالثياب الموشية الزاهية التى يعرضها على الناس.

وعلى ذلك يكون الشاعر قد استوفى صورة كاملة من التدمير والتعمير الذى يتركه السيل ، ولكنها ليست صورة مبهمة من صور التعميم والمغالاة التى يلجأ اليها الشعراء — على أن البيت الفذ فى هذه الأبيات قوله :

(كأن سباعا فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل)

ويزيده حسنا قوله (بأرجائه القصوى) لأنه يكسب الصورة اتساعا ورواء ودقة .

لمثل ذلك التصوير كان يطرب ذو الرمة، وذو الرمة بتشبيهه وتصويره وعدى ابن زيد بتحليقاته وتأملاته فى الكون يطيران معا فى سماء الضليل ، قال ذو الرمة يصف ظبية :

ذكرتك إذ مرت بنا أم شادن أمام المطايا تشرئب وتسنح
من المؤلفات الرمل أدماء حرة شعاع الضحى فى متنها يتوضح

قال يونس النحوى قدم علينا ذو الرمة من سفر وكان أحسن الناس وصفا للمطر فاختار قول امرئ القيس :

(ديمة هطلاء فيها وطف[1] طبق الأرض تحرى وتدر)

(١) الديمة يقال : دومت وديمت السماء مطرت الديمة ودامت السماء تدوم ديمة : مطرت ديمة ، مازالت السماء ديما أى دائمة المطر والديمة بكسر الدال مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق . هطلاء غزيرة . الوطف من وطف الرجل كثر شعر حاجبيه وعينيه وفى الأساس ، وفى أشفاره وطف أى طول شعر واسترخاء ووطف المطر : انهمر ويقال : فى السحابة وطف بفتح الطاء والفاء إذا تدلت ذيولها . طبق من طبق (بتشديد الباء) الشيء عم وطبق السحاب الجو غشاه وطبق الماء وجه الأرض غطاه وطبق الغيم : أصاب بمطره جميع الأرض والطبق غطاء كل شيء وطبق من المطر العام . وتحرى أى تتحرى مضارع تحرى يقال تحرى الأمر : توخاه وقصده ، ومنه فى القرآن «فأولئك تحروا رشدا» ، ومعناها هنا ليس هو القصد بل المكث يقال : تحرى بالمكان : تمكث به . وتدر : تسيل .

﴿تُخرج الوَدَّ إذا ما أشجذتْ ... وتواريه إذا ما تشتكر﴾ (١)

﴿وترى الضب خفيفا ماهرا ... ثانيا بُرثنَه ما ينعفر﴾ (٢)

﴿وترى الشَّجْراء فى رَيِّقها ... كرؤوس قطعت فيها الخُمُر﴾ (٣)

﴿ساعةً ثم انتحاها وابل ... ساقط الأكناف واه منهمر﴾ (٤)

---

(١) الود : الوتد فى لغة أهل نجد كأنهم سكنوا التاء فأدغموها فى الدال ، والمراد به أوتاد الخيام التى تظهرها الديمة إذا ما أشجذت . أشجذت جاء فى اللسان قال أبو زيد : شجذت السماء تشجذ شجذا وحلبت حلبا وهى فوق البغشة والبغشة : المطرة الضعيفة . تواريه : تستره . تشتكر ، من اشتكر الضرع : امتلأ لبنا ، واشتكرت السماء : جد مطرها أى اشتد وقعه .

(٢) الضب : جاء فى حياة الحيوان للدميرى ، دويبة على حد فرخ التمساح الصغير وذنبه كذنبه لا يتخذ جحره إلا فى كدية خوفا من السيل والحافر ولذلك توجد براثنه (أصابعه) ناقصة كليلة لحفره بها فى الأماكن الصلبة ، وإذا أرادت الضبة أن تخرج بيضها حفرت فى الأرض حفرة ورمت فيها البيض وطمتها بالتراب وتتعاهدها كل يوم حتى يخرج ، والعرب تحب صيد الضباب وأكلها . والماهر : السابح المجيد . وفى اللسان الحاذق بكل عمل وأكثر ما يوصف به السابح . ثانيا برثنه لأنه يسبح . ما ينعفر يقال : انعفر فى التراب تمرغ فيه فيجوز أن يكون المعنى هنا أنه مشغول فرح بالسباحة لاويا برثنه لأنه لا يحفر ولا يصيبه تراب ، وقد يكون المعنى أنه ماهر فى السباحة وأن الماء غزير فلا يمس برثنه الأرض يقال : دخلت الماء فما انعفرت قدماى أى لم تبلغا الأرض ، وقد ذكر اللسان هذا المعنى وعقبه ببيت امرئ القيس .

(٣) الشجراء : الشجر ، واحدتها شجرة وفى الصحاح ولم يأت من الجمع على هذا المثال إلا أحرف يسيرة : شجرة وشجراء ، قصبة وقصباء وطرفة وطرفاء . والشجراء الأرض ذات الشجر والكثيرته ، والشجراء : الشجر الملتف كالأجمة ومنه « كنا فى الشجراء » ويقابلها المرداء أى التى لا شجر بها ومنه قولهم : « قطعت كل شجراء ومرداء » . الريق : أن يصيبك من المطر شىء يسير وقد يخفف فيقال : ريق بسكون الياء كما يقال فى الميت : ميت . وريق الشباب : أوله يقال مضى روق الشباب وريقه . الخمر جمع خمار وهو النصيف وما تغطى به المرأة رأسها وكل ما ستر شيئا فهو خماره ، وفى حديث أم سلمة أنه كان يمسح على الخف والخمار أرادت بالخمار العمامة لأن الرجل يغطى بها رأسه كما أن المرأة تغطيه بخمارها .

(٤) الوابل : المطر الشديد الضخم القطر . انتحاها : اعتمدها بالانهمار وقصدها .

(راح تَمريه الصَّبا ثم انتحى ... فيه شؤبوبُ جَنوبٍ منفجر)[1]
(ثَجَّ حتى ضاق عن آذيِّـه ... عرض خَيْم فخُفَافٍ فيُسُـر)[2]
(قد غدا يحملنى فى أنفه ... لاحق الأيطل محبوك مُمِـر)[3]

يرجع جمال ذلك الشعر، كما قلنا، الى أن امرأ القيس يصف بالدقة ما يراه لا ما يمليه عليه الخيال — ولذلك تجد وصف المطر يختلف باختلاف الحالات، ففى الحالة الأولى مثلا ذكر لنا آثار المطر فى الجبال والأهاضيب خاصة، وهنا يذكر آثاره فى السهل حيث تُهلهل رؤوس أشجار الغاب كأنها خُمُر منقطعة وينطلق الضب سابحا فى الماء (ثانيا برثنه ما ينعفر) ...

---

(١) مرى الناقة يمريها مريا: مسح ضرعها لتدر ومرت الريح السحاب استدرته. انتحى قال ابن سيده والانتحاء اعتماد الابل فى سيرها على الجانب الأيسر ثم صار الانتحاء الميل والاعتماد فى كل وجه. وأنشد ابن برى لكعب بن زهير (اذا ما انتحاهن شؤبوبه) أى اعتمدهن، وانتحى فى الشىء: جد وانتحى الفرس فى جريه أى جد. والشؤبوب: الدفعة من المطر، والشؤبوب: شدة دفعه. الجنوب: ريح تقابل الشمال، ومنه اذا جاءت الجنوب جاء معها خير وتلقيح. والصبا: ريح مهبها من مطلع الثريا الى بنات نعش ويقابلها الدبور وزعم العرب أن الدبور تزعج السحاب وتشخصه فى الهواء ثم تسوقه فاذا علا كشفت عنه واستقبله الصبا فوزعت بعضه على بعض حتى يصير كسفا واحدا، والجنوب تلحق روادفه به وتمده من المدد، والشمال تمزق السحاب.

(٢) ثج الماء: سال. والآذى: موج البحر ج الأواذى كقوله: «ترمى أواذيه العبرين بالزبد» العرض: السعة. خيم بوزن غيم جبل عن الغورى. وخفاف بضم أوله وفائيه من مياه عمرو بن كلاب بحمى ضرية وهو سيرة وضح الحمى. ويسر: نقب تحت الأرض فيه ماء لبنى يربوع بالدهناء قال طرفة بن العبد:

أرق العين خيال لم يقـر ... طاف والركب بصحراء يسر
جازت البيد الى أرحلنا ... آخر الليـل بيعفور خدر
ثم زارتـنى وصحبى هجـع ... فى خليطين لبرد ونمـر
لا تلمنى أنها من نسـوة ... رقد الصيف مقاليت نزر

(٣) أنفه: أول نباته. لاحق الأيطل ضامر الخاصرة (يعنى فرسـه). محبوك: مدمج. ممر: مفتول العضل.

وقد ذكر الضَّباب فى بيتٍ آخر :

(فأضحى يسُح المـاء عن كل فيقة   يحور الضَّبابَ فى صفاصفَ بيض)[1]

ومن بديع التصوير فى هذه القطعة الهوائية الموسيقى والروح والنغم قوله :

(راح تمـــريه الصَّـــبا ثم انتحى   فيــه شؤبوب جنــوب منفجــر)

وامرؤ القيس يحب تتبع مدارج الرياح والسحب فى أجواء الطبيعة والأماكن التى تمران بهـا واختلاف حالات المطر، وشعره يطن لدوى الريح وصوت المـاء حين يقول :

(ســقى واردات والقَليبَ ولَعلَعـا   مُلِثٌّ سِمـاكىٌّ فهضـــبة أيهبـا)[2]

---

(١) قال الوزير أبو بكر : « الصفاصف جمع صفصفة وهى الفلاة المستوية الأرض و بيض عارية من النبات . يصف شــدة المطر وطحمة السيل عنه وأنه حار الضباب على مهارتها فى السباحة فذلك الشىء الذى لا يتعاظمه شىء » وتتميا لذلك الشرح نقول : إن أفضل الأماكن للســباحة هى الأرض المستوية التى لا نبات فيهـا ولا آكام ولا عمارة وهى الصفصف البيضاء الملساء فاذا عجز الضب فيها عن السباحة مع ما أوتيه من حذق ومهارة فذلك لأن قوة تدفق المـاء واندفاعه اندفاع السيل تركته فى ارتباك وحيرة .

(٢) واردات : موضع عن يسار طريق مكة وأنت قاصدها . وقال أبو عبيد السكونى : الربائع عن يسار سميراء وواردات عن يمينها سمركلها و بذلك سميت سميراء ، و يوم واردات معروف بين بكر وتغلب قتل فيه بجير بن الحارث بن عباد بن مرة فقال مهلهل :

فانى قد تركت بواردات   بجيــرا فى دم مثل العبير

القليب : جبل الشربة عن نصر . وعن العمرانى هضب القليب بالضم وقد ذكر موضع بعينه فقال :

ياطول يومى بالقليب فلم تكد   شمس الظهــيرة تتقى بحجاب

لعلع بمعنى السراب : جبل كانت به وقعة لهم . قال أبو نصر : لعلع ماء فى البادية وقد وردته ، وقيل : لعلع منزل بين البصرة والكوفة . وقال المسيب بن علس الضبعى :

منعوا كلامهـــم ونائلهـــم   يوم الفــراق ورهنهــم غلق

قطعوا المزاهر واستتب بهم   يوم الرحيــل للعلــع طــرق

وهضبة أيهب موضــع فى بلاد بنى أســد . ملث من ألث السحاب أو المطر دام أياما ولم يقلع . سماكى منسوب الى السماك وهو نجم بالسماء تنسب العرب اليه المطر .

﴿ فمر على الخبتين خبتى عنيزة ... فذات النقاع فانتحى وتصوبا ﴾[1]

﴿ فلما تولى من أعالى طمية ... أبست به ريح الصبا فتحلبا ﴾[2]

وحين يقول، وهو نوع من الشعر يسمى المسمط ينسب اليه، وهو يقرب من الشعر الأفرنجى فى روحه ومبناه :

﴿ توهمت من هند معالم أطلال ... عفاهن طول الدهر فى الزمن الخالى ﴾

* * *

﴿ مرابع من هند خلت ومصائف ... يصيح بمغناها صدى وعوازف ﴾

﴿ وغيرها هوج الرياح العواصف ... وكل مسف ثم آخر رادف ﴾[3]

﴿ بأسحم من نوء السماكين هطال ﴾[4]

---

(١) الخبت وهو فى الأصل المطمئن من الأرض فيه رمل وقال أبو عمرو : الخبت سهل فى الحرة وقال غيره : هو الوادى العميق الوطئ ينبت ضروب العضاه وهو علم لصحراء بين مكة والمدينة وخبت أيضا ماء لكلب . وعنيزة : موضع بين البصرة ومكة ، وقيل : ثنية للأودية ينتهى ماؤها اليها ، وقيل : من أودية اليمامة . قال جرير :

إن الفؤاد مع الذين تحملوا ... لم ينظروا بعنيزة الاشراقا

ذات النقاع لم أجده فى ياقوت . انتحى فى الأمر انتحاء : جد . تصوب : ارتفع .

(٢) طمية جبل فى طريق مكة مقابل فايد . قال السكونى : اذا خرجت من الحاجر تقصد مكة تنظر الى طمية وهو جبل بنجد شرق الطريق والى عكاش وقيل غير ذلك وهو من نواحى نجد بالاجماع . أبس الحالب بالناقة : دعاها لتحلب وهو يقول « بس . بس » . تحلب : سال «ترى الماء من أعطافه يتحلب » . يقول : إن السحاب سق بأنوائه واردات والقليب ولعلعا وهضبة أيهب بعد أن دام فيها أياما ثم مر (السحاب) بعد ذلك على خبتى عنيزة فذات النقاع بجد وارتفع فلما ترك أعالى طمية أساله ريح الصبا من جديد، وليس فى تلك الأبيات « دعاء لتلك البقاع بالغيث والخصب والنماء » وانما ذكر حالات معينة مترادفة ... مجرد تصوير .

(٣) أسف السحاب : دنا من الأرض . ردفه وردف له : تبعه .

(٤) الأسحم : السحاب . والنوء : المطر وأصل النوء سقوط نجم وطلوع نجم بحياله فى كل ليلة الى آخر =

على أن امرأ القيس حين يقول فى وصف السيل :

﴿كأن سباعا فيـه غرقى عشـية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل﴾

يلوّن تغريده بصيحة الحياة، و إنك لتكاد تسمع أنّة الحياة وعويلها فى كل نبرة من نبراته، وتحس حَدَبه على كل بائس يستوى فى ذلك الحيوان والإنسان فكلاهما شقى ... و إنى لترعجنى رائحة الموت فى البيت والحى ... وتزعجنى ريحه كلما هبت على وجه من تلك الوجوه الغضـة، على وجه البنين ... على وجه الأب والجار ... على وجه الكلب أو الحصـان الذى ألفنـاه وتأملنا فى ملامحه سر الحيـاة الغامض وخاتم[1] البأساء .

تلك كانت عاطفـة امرئ القيس أمام الطبيعة وشـقاوة الإنسان كما تبـدو فى شـعره :

﴿أرى المرء ذا الأذواد يصبح محرضا كأحراض بكر فى الديار مريض﴾

﴿كأن الفتى لم يغن فى الناس ساعة إذا اختلف اللّحيان عند الجريض﴾

يقول الشاعر إنه عنـد الموت يستوى صاحب الأذواد (وهى الجمال) والبكر (الجمل) الذى كان مرضه يملأ مساكن الحى قلقا وغما ... ثم قارن بين نعيم الإنسان

= السنة . ثم قال العرب : استقينا بنوء كذا . وكانوا يضيفون الأمطار والرياح والحر والبرد الى الساقط منها وقال الأصمعى الى الطالع منها فى سلطانه فيقولون مطرنا بنوء كذا كقوله :

ولا زال من نوء السماك عليكما ونوء الثريا مسـبل متبطح

(١) ختمه يختمه طبعه والخاتم مايوضع على الطينة وهو اسم مثل العالم والختام الطين الذى يختم به على الكتاب وقول الأعشى :

وصهباء طاف يهوديها وأبرزها وعليها ختـم

أى عليها طينة مختومة .

فى أقصى حدوده بلمحة من إعجاز القرآن (كأن لم تغن بالأمس) و بين بؤسه فى ساعة الموت (إذا اختلف الحيان) أى الفكان، ولا أظن شاعرا رسم لنا صورة من الموت حين تدق ساعته الرهيبة فى فترة المرض والاحتضار بدقة امرئ القيس وقوة بيانه ونظرته العجلى الى الحقيقة ذات الجلال .

الواقع أن ذلك الشاعر الضليل اللاهى كان قلق النفس حزينا تشغل شقاوة الإنسان حيزا كبيرا من تفكيره وخياله :

(ألا عِم صباحا أيها الطلل البالى وهل يعِمن من كان فى العُصُر الخالى)[1]

(وهل يعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال)[2]

بهذه التحية التى تكاد تُنطق الجماد خاطب امرؤ القيس الطلول وكأنى به يقول : أين السعادة؟ كلما رأى طللا دارسا كان شاهدَ حبه أو كلما قلب طرفه فى أحناء الطبيعة وفى أفيائها ورأى بؤس الانسان والطير والحيوان وكل ما تدب فيه الحركة والحياة؛ وظلم القوى للضعيف وحب الغارات وما يصحبها من أيْم و يُتْم ، فالطبيعة التى تنعكس صورتها فى شعره هى المنظر والمعاش معا ، هى مسرح الخيال والفكر والوجدان .

---

(١) اختلف الشراح فيا اذا كانت عم من وعم أو نعم ولكنهم اتفقوا فى أن معناها أنعم ، قال الأزهرى : والذى سمعناه وحفظناه فى تفسير عم صباحا أن معناه أنعم صباحا وأضاف كأنه لما كثر هذا الحرف فى كلامهم حذفوا بعض حروفه لمعرفة المخاطب به وهذا كقولهم : لاهم وتمام الكلام اللهم وكقولك : لهنك والأصل لله إنك .

(٢) المخلد : الذى أبطأ شيبه ، وفى القرآن (يطوف عليهم ولدان مخلدون) أى مقرطون ومسوّرون وقيل : لايهرمون أبداً ولا يجاوزون حد الوصافة . وأوجال : جمع وجل وهو الخوف .

وها هى قصيدة جامعة تمثل نزعاته الشعرية أحسن تمثيل :

﴿ عيناك دمعهما سِجال	كأنّ شأنيهما أوشالُ ﴾ [(١)]
﴿ أو جدولٌ فى ظلال نخل	للماء من تحته سِجال ﴾
﴿ من ذكر ليلى وأين ليلى	وخير ما رمتَ ما يُنال ﴾
﴿ قد أقطع الأرض وهى قفر	وصاحبى بازلٌ شِملال ﴾ [(٢)]
﴿ ناعمة نائم أبجلُها	كأن حاركها أُثال ﴾ [(٣)]
﴿ كأنها مفرد شَبوب	تلفّه الريح والظلال ﴾ [(٤)]

(١) سجال جمع سجل بفتح السين وهى الدلو العظيمة إذا كان فيها ماء ، والسجل أيضا الضرع العظيم يقال : «له برفائض السجال» أى إحسان واسع . والشأن : عرق الدمع ، تقول : فاضت شؤونه . والوشل ، من وشل الماء يشيل وشلا : سال وقطر ، والوشل : محركة الماء القليل يحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره ، والوشل : الماء الكثير ضد والوشل أيضا القليل من الدمع والكثير منه ضد ج أوشال .

(٢) البازل ، من بزل البعير بزولا : فطر نابه ؛ أى انشق بدخوله فى السنة التاسعة فهو بازل يستوى فيه المذكر والمؤنث . ناقة شملال ، أى خفيفة سريعة .

(٣) الأبجل : عرق غليظ فى الرجل وقيل : هو فى اليد بإزاء الأكحل ، وقيل : هو الأبجل فى اليد والنسا فى الرجل والأبهر فى الظهر والأخدع فى العنق قال أبو خراش :

رزئت بنى أمى فلما رزئتهم صبرت ولم أقطع عليهم أباجلى

والأبجل : عرق وهو من الفرس والبعير بمنزلة الأكحل من الانسان . قال أبو الهيثم : الأبجل والأكحل والصافن عروق تفصد وهى من الجداول لا من الأوردة ، الليث الأبجلان : عرقان فى اليدين وهما الأكحلان من لدن المنكب الى الكتف وأنشد (عارى الأشاجع لم يبجل) ، أى لم يفصد أبجله . والحارك أعلى الكاهل . والأثال بالضم اسم جبل وأثال بالقصيم من بلاد بنى أسد قال :

قاظت أثال الى الملا وتربعت بالحزن عازبة تسن وتودع

ونائم أبجلها ، من نام العرق : لم ينبض ولم يتحرك ولم يضرب يريد أنها فتية قوية الأسر فى السير لاتحس رجلها بالتعب ولا تكل .

(٤) المفرد : ثور الوحش ، والشبوب : الشاب من الثيران والغنم وقيل : المسن .

﴿ كأنها عنز بطن واد (١) تعدو وقد أفرد الغزال ﴾
﴿ عدواً ترى بينه أبواعا (٢) تحفزه أكرع عجال ﴾
﴿ وغائط قد هبطت وحدى (٣) للقلب من خوفه اجتلال ﴾
﴿ صاب عليه ربيع صيف (٤) كأن قريانه الرحال ﴾
﴿ تقدمنى نهدة سبوح (٥) صلبها العض والإحيال ﴾

(١) العنز : الأنثى من المعز . وقيل : اذا أتى عليها حول وكذلك العنز من الظباء والأوعال . وأفرد الغزال : عزل فصار وحيدا بعيدا من أمثاله .

(٢) البوع بفتح الباء : واحد الأبواع ، جاء فى اللسان البوع والباع والبوع مسافة ما بين الكفين إذا بسطتهما . الباع والبوع سواء هو قدر مد اليدين وما بينهما من البدن ، وباع يبوع بوعا اذا بسط باعه ، والابل تبوع فى سيرها وتبوّع : تمد أبواعها وكذلك الظباء ، والبائع : ولد الظبى اذا باع فى مشيه صفة غالبة وهو يبوع ويتبوع ، أى يمد باعه ويملأ ما بين خطوه ، قال الأزهرى البوع والباع لغتان ولكنهم يسمون البوع فى الخلقة وأما بسط الباع فى الكرم ونحوه فلا يقولون إلا كريم الباع ، ويقال : باع الفرس فى جريه ، أى أبعد الخطو . والعدو : الحضر ، عدا الرجل والفرس وغيره يعدو عدوا وتعداء وعدّى : أحضر قال رؤبة : (من طول تعداء الربيع فى الأنق) ويقال للخيل المغيرة : عادية قال الله تعالى : (والعاديات ضبحا) قال ابن عباس : هى الخيل . وقال علىّ رضى الله عنه : هى الإبل ههنا ، والعداء والعداء : الطلق الواحد للفرس وأنشد (يصرع الخمس عداء فى طلق) والعداء من العدو وهو الحضر والحضر ارتفاع الفرس فى جريه وهو أقصى سرعته . تحفزه : تسوقه وتدفعه . أكرع : أيد وأرجل .

(٣) الغائط المطمئن من الأرض : الواسع . اجتلال : فزع شديد .

(٤) صاب المطر : انصب ونزل . والربيع مطر الربيع ، والصيف : المطر يجىء فى الصيف أو بعد الربيع كقوله «حتى الربيع إلى شهور الصيف» ، يعنى به مطر الصيف والمعنى المقصود هنا أن هطلان المطر دام ربيعا وصيفا . والقريان : مسائل الماء . والرحال : الطنافس الحيرية ، أى المصنوعة بالحيرة . ومنه قول الأعشى :

ومصاب غادية كأن تجارها نشرت عليه برودها ورحالها

(٥) النهد : الفرس الحسن الجميل الجسم الضخم المشرف . العض : العلف . والاحيال : عدم الحمل .

﴿ كأنها لَقْـوَة طَلُوب   كأن خُرطومَها مِنشال ﴾[1]

﴿ تُطعم فرخا لهـا صـغيرا   أزرى به الجوع والإحثال ﴾[2]

﴿ قـلوب خِزّانَ ذى أورا   لٍ قوتا كما يرزق العيـال ﴾[3]

---

(١) لقوة طلوب عقاب شديدة الطلب للصيد . خرطومها : منقارها . منشال : حديدة ينشل بها اللحم من القدر .

(٢) أزرى به الجوع : أنهكه . الأحثال ، من حثل والحثل بسكون الثاء : سوء الرضاع والحال ، وقد أحثلته أمه . والمحثل : السيئ الغذاء قال متمم :

وأرملة تسعى بأشعث محثل   كفرخ الحبارى ريشه قد تصوعا

وفى حديث الاستسقاء : وارحم الأطفال المحثلة ، يعنى السيئى الغذاء من الحثل ويقال : أحثلت الصبى إذا أسأت غذاءه ، وأحثله الدهر : أساء حاله .

(٣) خزان جمع خزز كصرد ذكر الأرانب وقيل : ولد الأرنب . وأرض مخزة : كثيرة الخزان . أورال جمع ورل وهو دابة على خلقة الضب إلا أنها أعظم منه تكون فى الرمال والصحارى سريع السير خفيف الحركة يضرب فى المثل فى الظلم قيل : لأنه يغتصب الحية جحرها ويسكن فيه ويأكلها أكلا ذريعا ، قال ابن الرقاع فى الورل :

عن لسان كجثة الورل الأحـ   ـمر مجّ الندى عليه العرار

قال أبو منصور : الورل سبط الخلق طويل الذنب كأن ذنبه ذنب حية قال : ورب ورل يربو طوله على ذراعين . قال : وأما ذنب الضب فهو عقد وأطول ما يكون قدر شبر أحرش خشن مفقر ، والجمع أورال فى العدد وورلان وأرؤل . قال ابن برى : أرؤل مقلوب من أورل وقلبت الواو همزة لانضمامها ، وهنا أضاف اللسان . وقال امرؤ القيس فى الجمع على أورال (وهى رواية تختلف عن رواية الديوان) :

تطعم فرخا لها قرر   قة الجوع والأحثال

قلوب خزان ذوى أور   رال كما ترزق العيال

وفى كلتا الروايتين لا ندرى العلة فى ذكر الأورال . وأورال اسم مكان قال ياقوت : أجبل ثلاثة سود فى جوف الرمل الواحد ورل فيقال له الورل الأيمن والورل الأيسر والورل الأوسط وحذاؤهن ماءة لبنى عبد الله بن دارم يقال لها الورلة . قال عبيد بن الأبرص :

وكأن أقتادى تضمن نسعها   من وحش أورال هبيط مفرد

باتت عليه ليلة رجبية   نصبا تسح الماء أو هى أبرد

وكان يسكنها بنو خفاجة بن عمرو بن عقيل . =

﴿ وغارةٍ ذاتِ قَـيْرَوانٍ   كأنَّ أسـرابها رِعالُ ﴾(١)

﴿ كأنهـا حَرْشَفٌ مَبثوث   بالجـو إذ تَبرق النعـالُ ﴾(٢)

﴿ صَبَّحتُها الحيَّ ذا صبـاح   فكان أشـقاهـم الرجالُ ﴾(٣)

بدأ الشاعر بالبكاء على حب ليلى فشبه غزارة الدمع بجدول :

أو جدول فى ظلال نخـل   للمـاء من تحتـه مجـال

= وقد ذكر امرؤ القيس الخزان وأورال فى بيت آخر قال بعد أن ذكر العقاب :

تخطف خزان الشربـة بالضحى   وقـد حجرت منها ثعالب أورال

والشربة قال الأصمعى : الشربة بنجد ، ووادى الرمة يقطع بين عدنة والشربة ، فإذا جدعت الرمة مشرقا أخذت فى الشربة . والشربة بين الرمة والجريب ، والجريب : واد يصب فى الرمة . وقال غيره : والشربة مابين الزباء والنطوف وفيها حرشى وهى هضبة دون المدينة وهى مرتفعة كادت تكون فيا بين هضب القليب إلى الربذة وتنقطع عند أعالى الجريب وهى من بلاد عطفان ، والشربة أشد بلاد نجد قرا .

وأورال هنا اسم موضع ذكرناه وهو مشهور بالوحش فيكون معنى البيت أن العقاب تخطف خزان الشربة بالضحى ، وهذا أكبر دليل على جرأتها وسرعة اختطافها ، لا سيا أن الثعالب التى هى أكثر السباع روغانا وخفة لا تقدر على صيد هذه الأرانب . ويكون البيت الأول هكذا :

قـلوب خزان ذى أورال   قوتا كما يرزق العيـال

أى قلوب خزان المكان المسمى (بذى أورال) كما يقال خزان الشربة ، وهذه الأرانب هى من النوع الذى يسميه العامة بالأرانب الجبلية وهى أقوى منها طبعا وأسرع .

لذلك نرجح أن صاحب اللسان وشارحى شعر امرئ القيس أخطأوا فى تفسير أورال بأنها جمع ورل وهو الحيوان المعروف .

(١) الغارة هجوم الجيش على الحى عند الصبح . القيروان : الجماعة من الخيل ، والقيروان : معظم الكتيبة والقيروان : القافلة ، معرب . والأسراب : جمع سرب وهو القطيع من الخيل . والرعال : جمع رعلة وهى القطعة من الخيل القليلة تكون من البقر يقال : «أقبلت الخيل رعالا وأراعيل» .

(٢) الحرشف : صغار الطير ونحوه وكل شىء ، والحرشف : الجراد ما لم تنبت أجنحته ، قيل أن الأصل فى الحرشف الجراد ثم استعير لغيرها . تبرق : تلمع . النعال من النعل وهو طبق من حديد أو جلد يوقى الحافر أو الخف يجعل على أسفله ويكون له كالنعل للقدم .

(٣) صبحتها الحى : سرت بها حتى أوردتها إياه صباحا . أشقاهم الرجال لأنهم قتلوا وأسروا .

وبعد أن ذكر ذلك المنظر السهل الجميل من مناظر البادية أتى بصورة سهلة رائعة فى كلامه عن الثور الوحشى الذى شبه به ناقته :

﴿ كأنها مفرد شبوب تلفه الريح والظلال ﴾

ثم شبهها بغزالة تعدو :

﴿ عَدْوا ترى بينه أبواعا تحفزه أكرع عجال ﴾

وهنا تتجلى نزعة المصور والرسام عند امرئ القيس ، فان خط عَدْو الغزالة وحركتها ظاهر فى الصورة ظهورا واضحا ، واذا كان أحد يشك فى قدرة الشاعر على رؤية خطوط الأجسام والصور وفى توفر الحاسة الفنية عنده فاننا نجترئ بذكر البيت الآتى :

﴿ ويارب يوم قدلهوت وليلةٍ بآنسة كأنها خط تمثال ﴾

وقد ذكر امرؤ القيس الفرس بعد ذلك (تقدُمنى نهدة سبوح) أخذ هذا المعنى شاعر قديم فقال (تسبح أولاه ويطفو آخره) فجاء أروع تصوير لشدّة جرى الحصان وأكبر دليل على قوه الملاحظة ، ومن أراد أن يتحقق من ذلك فما عليه إلا أن يتأمل الصور الفوتوغرافية لخيل السبق وهى تجرى فى الحلبة فان الآلة الفوتوغرافية الدقيقة السريعة تسجل بالتفصيل والتطويل دقائق حركة الأرجل الأربع على اختلاف أطوارها من أوّلها إلى آخرها ، وتكررها ، فتظهر فيها الخيل كأنها سابحة فى الهواء .

وقد رسم لنا امرؤ القيس عدْو الغزالة (عدوا ترى بينه أبواعا ...) وسَبْح الجواد . وهو مولع بتصوير كل هيئة وحركة بمنتهى الدقة وأقصاها ، قال يصف فرسا من خيل البريد :

(أقب كسرحان الغضى متمطر ترى الماء من أعطافه قد تحدرا)[1]
(إذا زعته من جانبيه كليهما مشى الهيدبى فى دفه ثم فرفرا)[2]

وقال يصف عين فرس :

(وعين لها حدرة بدرة شقت مآقيهما من أخر)[3]

وبعد أن وصف عدو الغزالة والفرس شبه هذه الأخيرة بالعقاب :

(كأنها لقوة طلوب كأن خرطومها منشال)

وقد خص منقارها هنا بالذكر لأن الجارح يخطف به ويفتك . ثم انتقل الشاعر بعد ذلك انتقالا دقيقا إلى فلسفة الحياة والتماس العذر للعقاب فى افتراس صغار الطير والحيوان وانتزاع قلوبها :

(تطعم فرخا لها صغيرا أزرى به الجوع والأحثال)
(قلوب خزان ذى أورال قوتا كما يرزق العيال)

(١) الأقب من الخيل : الدقيق الخصر الضامر البطن والأنثى قباء . السرحان : الذئب ، وفى المثل "وقع العشاء به على سرحان" . الغضا : شجر عظيم من الأثل واحدته غضاة ، ذئب الغضا مثل فى الغدر والاختيال . المتمطر : الفرس السريع ، وتمطرت الفرس : أسرعت فى هويها ، قال :

من المتمطرات بجانبيها إذا ما بل مخزمها الحميم

قال ثعلب : أراد أنها من نشاطها اذا عرقت الخيل ، والتمطر : الاسراع ، قال لبيد يرثى قيس بن جزء فى قتلى هوازن :

أتته المنايا فوق جرداء شطبة تدف دفيف الطائر المتمطر

(٢) وزعه : أغراه . دف الطائر يدف وأدف : ضرب جنبيه بجناحيه ، وقيل : هو الذى اذا حرك جناحيه ورجلاه فى الأرض . الهيدبى : جنس من مشى الخيل فيه جد . وفرفر : انفض رأسه وعبارة القاموس فرفر الفرس : ضرب بفاس لجامه أسنانه وحرك رأسه .

(٣) عين حدرة : مكتنزة صلبة ، وبدرة : تبدر بالنظر وقيل حدرة : واسعة ، وبدرة : تامة كالبدر . قال امرؤ القيس ... وقيل عين بدرة يبدر نظرها نظر الخيل عن ابن الأعرابى وقيل : هى الحديدة النظر وقيل : هى المدورة العظيمة والصحيح فى ذلك ما قاله ابن الأعرابى (اللسان) . المآقى : مؤخر العينين جمع مأق .

فاذا كانت سنة الكون تقضى بأن تقتات العقاب وأفراخها قلوب الطير وأولاد الأرانب لتعيش ويعيش أفراخها التى تُطعَم (قوتا كما يرزق العيال) فذلك لأن رزق الإنسان ورزق الطير سواء فى أن مصـدرهما واحد : الكدح والقهر والغلبة ، وهذا مظهر من المظاهر التى تنوء بها الطبيعة .

وصف بعـد ذلك امرؤ القيس غارة على حى ، أو بعبارة أخرى ، منظر الغارة فى دورها الأول عند خروج المغيرين وانتشارهم :

(وغارة ذات قيروان كأن أسرابها رعال)
(كأنها حرشف مبثوث بالجو إذ تبرق النعال)

فقـال إن المغـيرين خرجوا كتائب (كأسراب الرعال) ثم انتشرت أعدادهم فى الأرض عنـد الاغارة (كالحرشف المبثوث) فوصف بذلك الغـارة فى حالتين من حالاتها وأعطى صورة كاملة منها من حيث العدد والشكل وارتسمت هـذه الصورة فى نفوسنا بقوة التمثيل .

وهـذا التمثيل يذكرنا تصوير الكاتب الفرنسى (استاندهال) لإحدى المواقع فى رواية له . كان بطل الرواية من شهود الموقعة يتنقل بين أنحائها شمالا وجنوبا شرقا وغربا فلا يرى إلا بعض جزئياتها فوصفها . شاهد مرة خيلا تجرى وأشلاء بالعراء فصاح متسائلا (هل رأيت موقعة ؟) . وشاهـد مرة أخرى شظايا قنابل تتطاير وتصفر وضجيجا وعجيجا فصاح (هل رأيت موقعة ؟) . وشاهد مرة ثالثة جرحى يئنون وقوما يفرون وسيوفا تلمع فصاح (هل رأيت موقعة ؟) .

واشتهرت هذه الصيحة وهذا التساؤل بأنه دليل على عجز الإنسان عن مشاهدة الكليات وتصـويرها ، ولكن الواقع أنَّ الكاتب أو الشاعر أو المصـور إذا تمكن

فى تمثيله من الإمساك بالحقيقة من أحد أطرافها أمكن للخيلة التى لا يعيش الإنسان بدونها أن تدرك تلك الحقيقة كلها أو معظمها، ومن هنا يتبين الفرق بين التصوير الآلى والتصوير الحى أعنى تصوير الشاعر أو الرسام .

وقد ختم امرؤ القيس وصف الغارة بقوله :

(صَبَّحتها الحى ذا صباح فكان أشقاهم الرجال)

ولئن كان المقام مقام فخر بالغزو والقتل — جريا على عادة العرب — فان أولئك الرجال الذين قتلوا ضعاف فى محيط الطبيعة ، وما من شك فى أن فى قلب الشاعر ، وفى أقصى ضميره ، عاطفة كامنة لا يُحَسّ بها عند ثورة الأحقاد ولكنها لا تلبث أن تظهر لمحا فى بيانه وفى غضون صُوَره وأنغامه .

ولأبى تمام من هذا القبيل صورة فذة رائعة ، قال فى قصيدته المشهورة فى فتح عمورية :

ولا الخدود وإن أدمين من خجل أشهى إلى ناظرى من خدك الترب

وقوله (خدك الترب) يفوق كل تشبيه فى الحسن والبلاغة .

وقد وصف امرؤ القيس غارة أخرى على أعدائه بنى أسد، قال :

(قد قرت العينان من مالك ومن بنى عمرو ومن كاهل[1])

(ومن بنى غنم بن دودانَ إذ نقذف أعلاهم على السافل)

(نطعنهم سُلكَى ومخلوجةً كَرَّكَ لأَمَين على نابل[2])

---

(١) بنو مالك وبنو عمرو وبنو كاهل من بطون بنى أسد .

(٢) قال الوزير أبو بكر، قوله سلكى أى طعنة مستويا وقيل : السلكى على القصر أمام وجهك والمخلوجة : المعوجه عن يمين وشمال ، وقيل : عن ناحية اليمين وناحية الشمال وقاله كرك لأمين أردك لأمين وهما السهمان على من يرمى يقال : اذا ألقيتهما ثم يقعا مستويين وربما استوى أحدهما وتعوج الآخر، ويقال سهم لأم اذا =

﴿ إذ هن أقساط كرجل الدَّبَا ⠀⠀ أو كقطًا كاظمةَ الناهل ﴾[1]

﴿ حتى تركناهم لدى معرك ⠀⠀ أرجلهم كالخشب الشائل ﴾

الخشب الشائل هو كما قال الوزير أبو بكر الذى ألقى بعضه على بعض وارتفع، ومن أراد أن يفهم روعة هذا البيت الضخم فليذكر ما أشرنا إليه غير مرة من قوة الملاحظة عند امرئ القيس وحسن تصرفه فى فنون الكلام .

وقد وضع بعض الكتاب الفرنسيين أسفارا عن مشاهداتهم فى الحرب الكبرى فكان بعضها آية فى أداء الحقيقة وتمثيلها ، روى لى أحدهم أنه لمح مرة من بعد فى أحد ميادين القتال رجلا قائما مستندا إلى شجرة فلما دنا منه وجده جسدا بلا روح فريع، وقد قص لى بعض ماراه من عجائب الأوضاع بين القتلى بعد المعركة .

= كان عليه ريشه ، وحدث الأصمعى عن أبى عمرو قال : كنت أسأل منذ ثلاثين سنة عن هذا البيت فلم أجد أحدا يعلمه حتى رأيت أعرابيا بالبادية فسألته عنه ففسره لى وقال العجاج : حدثتنى عمتى وكانت من بنى دارم قالت : سألت امرأ القيس وهو يشرب مع علقمة بن عبدة ما معنى قولك كرك لأمين؟ قال : مررت بنابل وصاحبه يناوله الريش لؤاما وظهارا فما رأيت أسرع منه فشبهت به ، وقال القتبى : انما هو كر كلامين أى تكرير كلام بمعنى قول القائل للرامى : ارم ارم ، أى ليس بين الطعن والطعن إلا بمقدار ارم ارم . والنابل : صاحب النبل وقال زيد بن كندة : يريد أن يطعن طعنتين مختلفتين ويوالى بينهما كما يوالى هذا القائل بين هاتين الكلمتين ، واللؤام أن تكون الريشة بطنها الى ظهر الأخرى وهذا محمود فى ريش السهام ، واللغاب بعكس اللؤام وهو أن يكون ظهر الواحدة الى ظهر الأخرى ويسمى ذلك الظهار أيضا .

(١) أقساط : فرق وقطع ، يقال قسط المال بينهم ، أى فرقه ووزعه يعنى الخيل . والرجل : القطعة من الجراد ، والدبا : الصغار منه المجتمعة . وكاظمة : موضع قريب من البصرة مما يلى البحر ، والناهل : العاطش ههنا . قال الوزير أبو بكر : يقول خيلنا ترد القتال وتحرص عليه كما ترد الماء القطا العطاش ويحتمل أن يكون شبه الخيل فى كثرتها وانتشارها بالجراد وفى سرعتها بالقطا العطاش اذا انقضت الى الماء وهى أسرع الطير قال الشاعر :

ردا ردا ورد قطاه صماء ⠀⠀ كدرية أعجبها برد الماء

والصورة التى رسمها امرؤ القيس هى من هذا الطراز لأن أرجل القتلى المتراكمة تختلف أوضاعها باختلاف الطعنات من (سلكى ومخلوجة) وباختلاف المكان والملابسات ، وقد نظر الشاعر إلى الأرجل فى ارتفاعها بين عمودية ومائلة ، مشتبكة ومنفرجة، هامدة لا حراك بها كالخشب الشائل ...

ولا يعدل ذلك الوصف الأخاذ بالألباب إلا قول مطران فى وصف العمال الذين بنوا الأهرام :

صفر الوجوه نادبا جباههم　　كالكلأ اليابس يعلوه الندى

فاذا كنا نحب امرأ القيس فلأنه يحب الحقيقة، وشعره مرآتها ، وهو يغرد على كل فنن ، فى الدوح والغاب ، بين الأثأب والسَّلَم ، فى الريح والظل ، على مورد الماء ، وفى حافة السماء ، فى أعالى الذرى وفى كل مَحْنِيَة ومُنعرَج ، وقد وسع فؤاده الكبير جميع مظاهر الحياة والعدم .

وهو يستغل كل مناسبة ليذكر الطبيعة التى تحتل فى فؤاده المكان الأول ، فاذا أراد أن يقول هل الأحبة منجدون أم مغيرون ؟ قال :

(أمَرخ خيامهم أم عُشَر　　أم القلب فى إثرهم منحدر)(1)

(1) قال الوزير أبو بكر المرخ : نبات نجد والعشر بالغور فكنى بالشجر عن الموضعين والأعراب يعملون بيوتهم من نبات الأرض التى ينزلونها ، فاذا رحلوا تركوها واستأنفوا غيرها فأراد أنجدوا أم أغاروا أى أتوا نجدا أم الغور أم لم ينزلوهما ولذلك قال أم القلب فى إثرهم منحدر ، أى يصبو اليهم وينحدر فى إثرهم والمرخ شجر قصار والعشر طوال قال :

فلا تحسبن جارى لدى ظل مرخة　　ولا تحسبنه فقع قاع تقرقر

أى لا تحسبنه مستظلا بمثل ظل المرخ وذلك أنها شجرة قصيرة لا ذرى لها ولا ظل يستظل بمثله ، القتيبى عن أبى عمرو شبه خيامهم حين تحملوا بشجر المرخ والعشر والأول أشبه ، وفى البيت ما يسئل عنه فيقال لم ذكر الخيام وتظليلها بالثمام وترك الأبنية التى هى بيوتهم ، فالجواب عن ذلك أنهم يفضلون ظل الثمام لأنه أبرد من ظل الأبنية

فذكر المرخ وهى شجر قصار تنبت بنجد وذكر العُشَر وهى شجر طوال تنبت بالغور، ويكاد ديوانه يكون قاموس علم نبات، قال يصف هوادج النساء فى بدء ارتحالها :

﴿ وفوق الحوايا غِزلة وجآذر — تضمَّخن من مِسك ذكى وزَنبق ﴾[1]

﴿ فأتبعتهم طرفى وقد حال دونهم — غوارب رمل ذى ألاء وشبرق ﴾

ذكر فى البيت الأول الزنبق، وهو بصل له نور أصفر حسن الرائحة، وذكر فى البيت الثانى الألاء والشبرق، والألاء شجر يشبه الآس وله ثمر يشبه سنبل الذرة ومنبتها الرمل والأودية، والشبرق الضريع وهو نوع من النبات، وقد يكتفى غير امرئ القيس من الشعراء بذكر غوارب الرمل (أعالى هضابه) التى تحول دون إتباع النظر خلف الهوادج ولكن إضافة (ذى ألاء وشبرق) خلعت على البيت جمال الحقيقة وبهاءها وأكسبت الصورة لونا خاصا من تلك الألوان البهيجة التى هى متعة العين والنفس، وهذا كله يدخل فى تحديد الأماكن واتجاهات الشاعر فى ذلك التحديد .

وقد تمكن امرؤ القيس باستعمال حرف واحد، وهو حرف التصغير فى بيت من الشعر فكان هذا الحرف الدقيق سببا فى خلق صورة كاملة تمثل منظرا من أجل مناظر الطبيعة وأروعها، قال يمدح قوما نزل عندهم فى الجبال فأكرموا وفادته :

﴿ تبيت لَبُونى بالقُرَيَّة أُمَّنًا — وأسرحها غِبًا بأكناف حائل ﴾[2]

---

(١) الحوايا مفردها الحوية وهى كساء يحشى بهشيم النبات ويجعل حول سنام البعير لا تكون إلا للجمال بخلاف السوية فقد تكون لغيرها، ومنه المثل (المنايا على الحوايا) يضرب لمن سعى الى المنية بنفسه .

(٢) اللبون : النوق التى يحتلب لبنها . والقرية قال ابن الكلبي : مكان فى جبل طىّ مشهور . وذكر البيت . سرح الراعى المواشى سرحا : أسامها أى أرسلها ترعى تتعدى ولا تتعدى . غبا : الوقت بعد =

(بنو ثُعَلٍ جيرانها وحماتها ... وتمنع من رماة سعد ونابل)[1]

(تُلاعب أولادَ الوعول رباعُها ... دُوَيْنَ السماء فى رؤوس المجادل)[2]

فكلمة دوين قَرَّبتْ السماء وجعلتها على ميل ثم بَعَّدتها فى الوقت نفسه الى أعلى أقطار الجمال ...

وقد حاول كثير من شعراء الجاهلية بعد امرئ القيس استعمال كلمة دوين ولكن لم يوفق أحد منهم إلى مداناة ذلك العقل الشعرى الجبار .

وليس لأحد من المتقدمين والمتأخرين تحليقاته فى أفق الطبيعة الواسع وتلك النظرات المترامية بين حباب الماء وكواكب الظلماء . وله فى لمعان البرق واختلاجه فى السماء آيات لا هى من الوصف الحسى ولا هى من الوصف الخيالى و إنما هى تصوير فقط ، هى وحى شاعر ملهم عاش وجرب وتأمل فى الوجوه فرأى بواسع فطنته وقوة ملاحظته ذلك السبب الدقيق الذى يصل بين اختلاجات النفس البشرية فى أبعد أغوارها وبين كل حركة وسكنة ترتسم على وجوه الرجال وأيديهم ... ثم أنشأ بين هذه الاختلاجات واختلاجات الطبيعة خيطا من الخيال وصل بينهما وجعل منهما وحدة كبرى ، قال :

= الوقت ، وحائل ، قال ابن الكلبي : واد فى جبل طيئ وذكر البيت . ودخل بدوى الى الحضر فاشتاق الى بلاده فقال :

لعمرى لنور الأقحوان بحائل ... ونور الخزامى فى ألاء وعرفج

أحب إلينا يا حميد بن مالك ... من الورد والخيرى ودهن البنفسج

وأكل يرابيع وضب وأرنب ... أحب إلينا من سمانا وتدرج

ونص القلاص الصهب تدمى أنوفها ... يجبن بنا ما بين قو ومنعج

أحب إلينا من سفين بدجلة ... ودرب متى ما يظلم الليل يرتج

(١) بنو ثعل : قوم مشهورون بالرماية . وسعد ونابل من رماة بنى نبهان .

(٢) الوعول : تيوس الجبل . الرباع : الفصلان . المجادل : الجبال .

﴿ أصاح ترى برقا أريك وميضه كلمع اليدين فى حَبِيٍّ مكلل ﴾ (١)

وقال :

﴿ أعِنِّى على برق أراه وميض يضىء حَبِيًّا فى شمارِخَ بيض ﴾ (٢)
﴿ ويهدأ تاراتٍ سناه وتارةً ينوء كتَعتَاب الكسير المهيض ﴾ (٣)
﴿ وتخرج منه لامعاتٌ كأنها أكفٌّ تلَقَّى الفوز عند المُفيض ﴾ (٤)

لمح الشاعر بحسه المرهف فى وميض البرق وتبوّجه لمعان أكف المقامر الفائز أو الذى يتناول الظفر بين المقامرين ... ... فوفق بين الحقيقة والخيال وأبدع

(١) أصاح : يا صاحبي . حبي مكلل : سحاب متراكم . كلمع اليدين ، لمع يلمع لمعا ولمعانا تأتى بمعنى أضاء ، يقال : لمع البرق . واللامعة : الفلاة التى تلمع بالسراب وتأتى بمعنى تحرك بسرعة يقال : لمع الرجل بيديه : أشار بهما وألمعت المرأة بسوارها وثوبها كذلك ، قال عدى بن زيد العبادى :

عن مبرقات بالبرين تبدو وبالأكف اللامعات سور

ولمع الطائر بجناحيه وألمع بهما : حركهما فى طيرانه وخفق بهما . وألمعت الناقة وهى ملمع : تحرك ولدها فى بطنها . ولمع ضرعها : لوّن عند نزول الدرة فيه وتلمع وألمع كله تلون ألوانا عند الانزال .

(٢) الوميض : اللمع الخفى . والحبي : المشرف من السحاب ويقال : المعترض . والشماريخ : ما ارتفع من الجبال وهو ههنا ما ارتفع من أعالى السحاب .

(٣) السنا : الضوء . ينوء : ينهض على ثقل : والتعتاب : المشى على ثلاث ، والعتاب : وثب الانسان على رجل واحدة . والمهيض : الذى كان كسر ثم جبر ثم كسر بعد ذلك ومعنى البيت ، قال الوزير أبو بكر : إن البرق قد عمل حتى كل فهو خفى ثم اذا ظهر متثاقلا حركته كتثاقل حركة الكسير اذا رام القيام والنهوض .

(٤) أفاض الرجل بالقداح إفاضة : ضرب بها لأنها تقع منبثة متفرقة ويجوز أفاض على القداح . قال أبو ذؤيب الهذلى يصف حمارا وأتنه :

وكأنهن ربابة وكأنه يسر يفيض على القداح ويصدع

يعنى بالقداح وحروف الجرينوب بعضها مناب بعض ، التهذيب : كل ما كان فى اللغة من باب الافاضة فلا يكون إلا عن تفرق أو كثرة ، وفى حديث ابن عباس أخرج الله ذرية آدم من ظهره فأفاضهم إفاضة القدح هى الضرب به واجالته عند القمار . والقدح : السهم واحد القداح التى كانوا يقامرون بها ، ومنه حديث اللقطة ثم أفضها فى مالك أى ألقها واخلطها به من قولهم فاض الأمر وأفاض فيه .

أيما إبداع في جمعه بين الكون والإنسانية التي تعيش تحت سقفه ، الإنسانية التي تلهو وتجد ، وتضحك وتبكي ، وتقامر وتغامر ... فاذا اتصلت الأرض بالسماء : الأولى بحركات أيدي لاعبيها ، والثانية بلوامع بروقها . وظهرت تلك الصلة الدقيقة بينهما في شعر ، كان ذلك الشعر ترجمان الحياة لأنه يلقي من أعلى عليين شعاعا على أغوارها .

والعجيب إن امرأ القيس كالطبيعة التي تلهمه وتمده لا ينضب له معين من أفانين التمثيل والتلوين والتعبير ، وقد وسعت قريحته الخصبة الغنية بمواردها كل ضروب التصوير وفنونه فأجادها وسبق إليها طاوية القرون أمامه طيا .

وها نحن أولاء نذكر له قصيدة فذة بدأها بوصف فرس شبهه في متابعة العدو ومداومته بعد أن بلغ أقصى حُضْره بعقاب لاح لها ذئب فتحدرت إليه ، وهنا وصف المطاردة بأبلغ بيان . قال :

((قد أشهد الغارة الشعواء تحملني جرداء معروقة اللحيين سُرحوب))[1]
((رِقافها ضرم وجريها خذم ولحمها زِيم والبطن مقبوب))[2]

(١) الغارة الشعواء : المعركة الحامية الشديدة . جرداء : فرس قصيرة الشعر . اللحيان : حائطا الفم وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم يكون للانسان والدابة . معروقة من عرق العظم عرقا : أكل ما عليه من اللحم وأخذه كله فهو عارق ، ومنه عرقه مدته في أكله مكاكيه ، وعرقه المطلوب : أخذت منه . سرحوب : السرحوب ابن آوى ، وفرس سرحوبة أي طويلة . ويقال : رجل سرحوب أي طويل حسن الجسم متناسب الأعضاء .

(٢) يقول : إنها تضطرم مثل النار في عدوها وإنها تسرع في جريها . ولحم زيم : متفرق ليس يجتمع في مكان فيبدن . قال زهير :

قد عوليت فهي مرفوع جواشنها على قوائم عوج لحمها زيم

قال ابن بري . ومنه قول الشاعر : (عركركة ذات لحم زيم) مقبوب : مضمر .

والعين قادحة والمتن سلحوب (١)	واليد سابحة والرجل ضارحة
والقصب مضطمر واللون غربيب (٢)	والماء منهمر والشد منحدر
صقعاء لاح لها بالقفرة الذيب (٣)	كأنها حين فاض الماء واحتفلت
ودون موقعها منه شناخيب (٤)	فأبصرت شخصه من فوق مرقبة
يحثها من هوِىّ الريح تصويب (٥)	فأقبلت نحوه فى الجو كاسرة

(١) ضارحة ، يقال : قوس ضروح : شديدة الحفز والدفع للسهم ، والضروح : الفرس النفوح برجله ، وضرحت الدابة برجلها : رمحت . قال العجاج : (وفى الدهاس مضبر ضروح) . وقيل : ضرح الخيل بأيديها ورمحها بأرجلها ، وضرح : تباعد ، وبينى وبينهم ضرح أى تباعد ووحشة ، والانضراح : الاتساع ، والمضرحى من الصقور : ما طال جناحاه . وقال غيره : المضرحى النسر وبجناحيه شبه طرف ذنب الناقة وما عليه من الهلب قال طرفة :

كأن جناحى مضرحى تكنفا   حفافيه شكا فى العسيب بمسرد

قادحة : غائرة . المتن : الظهر . سلحوب : أملس قليل اللحم .

(٢) الشدّ : العدو . منحدر : سريع . القصب : الخصر . غربيب : أسود كلون الغراب .

(٣) احتفل القوم : اجتمعوا . واحتفل الوادى بالسيل : امتلأ . واحتفل الطريق : استبان ووضح . قال الراعى يصف طريقا :

فى لاحب برقاق الأرض محتفل   هاد إذا غره الحدب الحدابير

أراد بالحدب الحدابير صلابة الأرض . واحتفل الفرس : ظهر لفارسه أنه بلغ أقصى حضره . الصقعاء : مؤنث الأصقع . والأصقع من الخيل والطير : ذو الصقعة . والصقعة : بياض فى رؤوسها . وعقاب أصقع : فى رأسه بياض . قال امرؤ القيس ... وقال ذو الرمة :

من الزرق أو صقع كأن رؤوسها   من القهز والقوهىّ بيض المقانع

(٤) شناخيب : رؤوس الجبال .

(٥) يقال عقاب كاسر أى منقض أو يكسر ما يصيده والكاسر فى أسماء العقاب . تصويب من صوّب ، يقال صوّب رأسه خفضه وصوّب السهم نحو الرمية سدّده وصوّب الإناء أماله إلى أسفل ليجرى ما فيه . هوى الريح يقال هوت الريح هويا هبت وهوى الشىء هويا وهويا سقط من علو إلى أسفل والهوى بالفتح للاصعاد والهوى بالضم للانحدار . يقول إن الريح فى انحدارها تساعد العقاب فى انقضاضها على فريستها .

﴿ صُبّت عليه وما تنصبّ من أَمَمٍ ... إن الشقاء على الأشقين مصبوب ﴾ (١)

﴿ كالدَّلْو بُتَّتْ عُراها وهى مُثقَلةٌ ... إذ خانها وذَمٌ منها وتكريب ﴾ (٢)

﴿ لا كالذى فى هواء الجو طالبةً ... ولا كهذا الذى فى الأرض مطلوب ﴾

﴿ كالبَرِّ والريح فى مرآهما عجب ... ما فى اجتهاد على الإصرار تعييب ﴾

﴿ فأدركته فنالته مخالبها ... فانسلّ من تحتها والدف معقوب ﴾ (٣)

﴿ يلوذ بالصخر منها بعد ما فترت ... منها ومنه على الصخر الشآبيب ﴾ (٤)

﴿ ثم استغاثت بمتن الأرض تعفره ... وباللسان وبالشدقين تتريب ﴾ (٥)

﴿ فأخطأته المنايا قِيس أُنمُلةٍ ... ولا تحرُّزَ إلا وهو مكتوب ﴾ (٦)

﴿ يظل منحجرا منها يراقبها ... ويرقب الليل إن الليل محجوب ﴾ (٧)

﴿ والخير ما طلعت شمس وما غربت ... مُطَلَّب بنواصى الخيل معصوب ﴾

خص امرؤ القيس فرسه فى هذه القطعة بأربعة أبيات أو ستة مع أنها الموصوف أى الشخص الأول وخص العقاب، وهى الشخص الثانى، باثنى عشر بيتا .

---

(١) من أمم : من قرب .

(٢) العروة من الدلو والكوز : المقبض أى أذنهما ج عرى . الوذم السيور بين آذان الدلو والعراقى . تكريب من كرب الدلو جعل عليها الكرب والكرب حبل يشد فى وسط العراقى .

(٣) الدف الجنب من كل شىء . معقوب أصيب بكسر أو مصاب يقول إن الذئب انسل من العقاب بعد أن نالته مخالبها فى جنبه وفى نسخة والدف مثقوب .

(٤) فتر الماء سكن حره فهو فاتر والشآبيب الماء أى العرق والشؤبوب فى الأصل الدفعة من المطر أو شدة دفعه .

(٥) تعفره فى التراب يعفره عفرا مرغه فيه أو دسه والمعفور المترب المعفر بالتراب وفى الحديث العافر وجهه فى الصلاة أى المترب .

(٦) قيس : القدر والقيس المصدر يقال بينهما قيس رمح وقيسه أى قدره . تحرز واحترز منه توقى .

(٧) منحجرا متخذا .

وليست هذه أول مرة يحتال فيها الشاعر احتيالا للإسهاب فى وصف قوة من قوى الطبيعة المتعددة التى يتتبعها ويرقب ظواهرها المختلفة بكل حسه .

ومن عناصر هـذه المطاردة يتألف الموضوع الأساسى الذى يسترعى الأبصار وهو من المواضيع الدراماطيقية المثيرة . منظر صراع بين طائر جارح وذئب فاتك : أحدهما يحلق فى الجو ، والآخر ينسرب فى الأرض . ولهذا الصراع فصول عجلى متعددة كثيرة الحركات والألوان . وقد فصل لنا امرؤ القيس ذلك الصراع تفصيلا بينا جعله حقيقة ماثلة تحفز لهـا وتضطرب أنفاسـنا فى كل دور من أدوارها كأنما نشاهدها فى " مرسح " الحياة .

والواقع أن هـذه الأبيات قطعة فنيـة من أعلى طراز تلعب بالنفس وتجاذبها مدا وجزرا كأنها موسيقى تتدفق من عليا الجنان .

ومن الإيجاز المعجز قوله :

(لا كالذى فى هـواء الجـو طالبـة	ولا كهذا الذى فى الأرض مطلوب)[1]
(كالـبز والريح فى مرآهمـا عجب	ما فى اجتهاد على الإصرار تعييب)

بعد أن تكلم الشاعر عن رؤية العقاب للذئب وانحدار سيدة الطيور من الجو (يحثها من هوىّ الريح تصويب) انتقل إلى الفصل الثانى من المطاردة : يقول إن العقاب فى الجو ليس أمنع ولا أقوى منها فى الطلب ، كما أن الذئب فى الأرض ليس أقدر منه على الغدر والنجاء ، فإذا انقضت العقاب ووقعت على الذئب أو كادت انسل من تحتهـا فظلت تتعقبه وهو يجرى فى وثبـه وانطلاقه ، مندفعا ومتفلتا ، صاعدا

(١) روى أن دعبل كان يقدم امرأ القيس بقوله فى وصف عقاب :

ويلمها من هـواء الجـو طـالبـة ولا كهذا الذى فى الأرض مطلوب

ونازلا، معتدلا ومنعرجا، منطويا ومنتشرا، سريع التقلب والمحاورة، دؤوبا، جلدا على الكفاح، وهى مثله فى إصرارها وعنادها لا تهادن ولا تتراخى، وكلما خيل إليها أنها أمسكت بتلابيبه أو بجانب منه فر من مخالبها فكأن منظرهما كالثوب والريح فى مرآهما عجب ... ... فى خفوقها واضطرابهما، فى حركاتهما المفاجئة المتنوعة فى كل مهب .

وبعد أن أنهكت قواهما المعركة اعتصم بالصخرة وهى فوقها تترصده :

(يلوذ بالصخر منها بعد ما فترت منها ومنه على الصخر الشآبيب)

فلما عيل صبرها أخذ منها الغيظ مأخذه فلجأت إلى ظهر الأرض عند مكمن خصمها القوى تثير التراب برجليها ومخالبها وتعفره :

(ثم استغاثت بمتن الأرض تعفره وباللسان وبالشدقين تتريب)

ثم استغاثت ... ... وباللسان و بالشدقين ... ... فهل هناك تصوير يصف لنا صراع القوة و يؤدى لنا الحقيقة حية ملموسة نابضة تتحرك أمامنا فى أبهتها و جمالها فى موكب الشعر، مثل تصوير امرئ القيس؟

هذه الحقيقة الماثلة كان امرؤ القيس يجعلها أرضا لسماء خياله (والسماء للأرض سقف) وكان يحبها ويسمو بها سمو الخالدين .

الفصل الخامس

الحب والتشبيب

خلق الإنسان ألوفا بالطبع ولا ألفة بغير حب أو صداقة وما الحب إلا أقصى درجات الصداقة وهو نوعان : الحب (الأفلاطونى) أو العذرى وهو الحب النزيه المجرد من الشهوات الذى تتلاشى فيه النفس صافية نقية ، وقد يسوق صاحبه الى الموت كما حدث لبعض شعراء الحب عند العرب ، والحب (الابقراطى) أو الجسدى وهو الحب الذى تختلط به الأغراض والشهوات ، حب الفاتك المتهالك على اللذات والاستمتاع بذوات الدلال .

وهذا الحب الأخير هو حب امرئ القيس ، وقد قضى الشاعر معظم حياته فى اللهو والصيد والتسلى بهند عن نوار والبكاء على الديار وأماكن الحب والذكرى ، على أنه لم يكن من شعراء التشبيب بالمعنى الصحيح ككُثير وقيس والمجنون ، لأننا لم نسمع من قيثارته تلك النغمات والألحان التى سمعناها من شاعر كذى الرمة قطع دهره وأفنى شبابه فى التشبيب بواحدة هى مى .

ومى هذه هى بنت مقاتل المنقرى ، وكانت جميلة مسنونة الوجه ، طويلة الخد ، شماء الأنف عليها ملاحة وجمال . حدّث ذو الرمة ، أوّل ماقاد المودّة بينى وبين مى ، أنه خرج هو وأخوه وابن عمه فى بغاء إبل لهم قال : بينا نحن نسير إذ وردنا على ماء وقد أجهدنا العطش فعدلنا الى حواء عظيم فقال لى ابن عمى : ائت الحواء فاستسق لنا فأتيته وفى رواقه عجوز جالسة فاستسقيت فالتفتت وراءها فقالت : يا مى اسق الغلام فدخلت عليها واذا هى تسبح علقة لها وهى تقول :

يا من يرى برقا يمرّ حينا زمزم رعدا وآنتحى يمينا

كأن فى حافاته حنينا أو صوت خيل ضمر يردينا

ثم قامت تصب فى شكوتى المـاء وعليها شوذب ، فلما انحطت على القـربة رأيت مُوَلِّى لم أر أحسن منه ... .. فلهوت بالنظر اليهـا وأقبلت هى تصب المـاء والمـاء يذهب يمينا وشمالا فأقبلت العجوز علىّ وقالت : يا بنى أهلتك مى عما بعثك أهلك . أما ترى المـاء يذهب يمينا وشمالا ؟ فقلت : أما والله ليطولن هيامى بها ، وملأت شكوتى وأتيت أخى وآبن عمى ولففت رأسى فانتبذت ناحية، وقد كانت مى قالت لى : لقـد كلفك أهلك السـفر على ما أرى من صغر سنك وحداثتك ، فانشأت أقول فيها أول قصيدة لى ، ثم مكثت أهيم بها فى ديارها عشرين سنة .

قال أحمد بن عبـد العزيز الجوهرى سماعا عن النوفلى عن أبيه . إن ذا الرمة ضاف زوج مى فى ليلة ظلماء، وهو طامع أن لا يعرفه زوجها فيدخله بيتها فيراها ويكلمها، ففطن له الزوج وعرفه فلم يدخله وأخرج اليـه قراه وتركه بالعراء، وقد عرفته مى، فلما كان فى جوف الليل تغنى غناء الركبان قائلا :

أراجعـــة يا مى أيامنـا الأولى بذى الأثل أم لا مالهن رجوع

فغضب زوجها وقال لها : قومى فصيحى به (يا ابن الزانية وأى أيام كانت لى معك بذى الأثل)، فصاحت به فركب راحلته وانصرف .

فاذا كان ذو الرمة قضى أكثر من عشرين سـنة فى ديار مى يشبب بهـا فان امرأ القيس كان كثير التنقل والأسفار سريع النسيان، وقد ذكر اسم أكثر من واحدة فى شـعره : فاطم، وليلى، وسعاد، ورقاش، وماوية، وهند، والرباب، وفرتنا، والخنساء، وعنيزة، وهر ...

وقد حاول بعض الشراح أن يجدوا لهذه الأسماء حقيقة أو تاريخا فقال أحدهم إن هرا هذه واسمها أم الحويرث أيضا من زوجات أبى امرئ القيس وهى أخت الحارث بن ضمضم من كلب فلذلك كان أبوه طرده وهم بقتله . وقال الزوزنى عن عنيزة إنها بنت عمه شرحبيل . وقيل هو لقب لها واسمها فاطمة . وقيل بل اسمها عنيزة وفاطمةُ غيرها، وقال الطوسى عن هر إنها ابنة العامرى وكان امرؤ القيس فى كلب وطيئ أيام نفاه أبوه .

وظاهر من شعر امرئ القيس أن هذه كلها أو جلها أسماء مستعارة أو ألقاب مصطنعة لصواحبه اللواتى سعد بهن ساعة من الزمان ولا شك أن جزءا كبيرا من شعر شباب امرئ القيس فى التشبيب قد فقد . روى أنه كان يعترض فتيات بنى أسد و يغازلهن فبلغ أمره الى أبيه، وكان ذلك مما لا يرضى ملوك العرب فى ذلك الزمن ، فنهاه فلم ينته ، وزجره فلم يزدجر، ففكر فى تأديبه وأرسله فى رعاء الإبل ليذله ويصرفه عن الحياة الخليعة فخرج بالإبل يرعاها عامة يومه، ثم آواها مع الليل وجعل ينيخها ويقول حبذا طويلة الأقراب، غزيرة الأحلاب ، كريمة الصحاب، حبذا شداد الأوراك ، عراض الأحناك، طوال الأسماك ، ثم بات ليلته يسمر مع السمار بذكرها والحديث عنها فعلم أبوه ذلك ، فلما صبحه الصباح قال له اخرج مع الخيل فخرج بها الى المرعى حتى اذا أقبل الليل رجع بها ، وسمعه والده حجر يقول عند إيوائها : حبذا الجياد، إناثها نساء ، وذكورها ظباء، نعم الصحاب راجلا وراكبا، تدرك طالبا، وتفوت هاربا ، فساء ذلك أباه فجعله فى رعاية الأغنام فخرج بها عامة يومه حتى اذا أمسى آض من المرعى وهو يقول : أخزاها الله لا تهتدى طريقا ولا تعرف صديقا، ولا تطيع راعيا، ولا تسمع داعيا . ثم تهالك على نفسه إعياء وكلالا ومضى لا يلوى على السمار الى مضجعه فظن والده أنه قدر عليه، فلما أسفر

الصبح قال له اخرج بالشاء، فمضى امرؤ القيس يقودها حتى إذا بعد من الحى وأشرف من الوادى أخذ التراب وطفق يحثوه على وجوهها وهى ترتد الى الديار وهو خلفها لا يكف عن فعله قائلا : حجر فى حجر ، حجر لا مدر، هبهاب لحم و إهاب ، للطير والذئاب ، فلمـا رأى حجر فعل امرئ القيس بالأغنام أسـقط فى يده وعلم أنه لن يقدر عليه فنادى مولى من مواليه يسمى ربيعـة وأمره أن يأخذ امرأ القيس الى خارج الحى ثم يقتله ويأتيه بعينيه، فانطلق ربيعة الى الصحراء ولكنه فكر مليـا وخشى أن يعود حجر بعـد أن تهدأ ثائرته فيجزع على فقـد ولده فترك امرأ القيس فى مكان ثم ذبح جؤذرا وجاء بعينيه الى أبيـه ، فندم حجر وأظهر الحـزن فقال له ربيعة : أبيت اللعن انى لم أقتله ، فقال له جئنى به الآن. فلما جاءه نهاه عن قول الشعر فامتثل ولكنه سرعان ما عاد الى سـيرته الأولى من لهو ولعب وتشبيب فبلغ ذلك أباه فطرده فذهب شريدا ، ثم صار يجمع الذؤبان والصعاليك من أحياء طيئ وكلب و بكر وأخذ يتنقل بهـم فى منازل العرب و يغير بهـم على أحيائها ويقاسمهم الغنائم أو ما يقع من الصيد ، ثم يذهب به الى المناهل والغـدران والرياض فيذبح لهم و يؤاكلهم ويعاقرهم الخمر، ويلاعبهم النرد، وينشدهم الشعر و تغنيهم قيانه اللاتى كن يصحبنه للهوه ومرحه .

روى أن امرأ القيس كان يأمر قيانه أن يغنين له بشعر مرة بن الرواغ :

إن الخليط أجد البـين فادّلجوا	وهـم كذلك فى آثارهم بلجـج
عصر الشـباب يغنينى مصلصلة	جيـداء لا حجل فيهـا ولا رنج
وقـد أقـود لغيث لا أنيس به	إلا البعوض وإلا الأزرق الهزج
نهـد المراكل يطويه ويركبـه	حتى يُكَفِّت عن مصرانه العفج
بمثله كنت أعلو الخيل إذ ركبت	إذا الجيـاد كسا فرسانهـا الرهج

وقد ذكر ابن أحر حال امرئ القيس فى لهوه فقال :

إن امرأ القيس على عهده ... فى إرث ما كان أبوه حجر
يلهو بهند فوق أنماطها ... وفرتنا يعدو إليها وهر
حتى أتته فيلق طالخ ... لا تتقى الزجر ولا تنزجر

ولولا فرتنا وهند لما عمر شباب امرئ القيس بالحب والذكريات ولما أصبح شعره ذلك الشعر العالى الذى يتغنى به الركبان ويطرب له المحزون فى غربته وذو الكبد الحرى . وهو أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى لذكر الحبيب والمنزل .

وقد قلنا من قبل أنه أول من حدد الأمكنة وفتح بذلك فتحا جديدا فى الأدب العربى ، على أنه لم يقتصر على تحديد الأمكنة ، بل حاول أيضا تحديد الأزمنة فدفعه ذلك إلى النظم القصصى الذى جاء فى معلقته :

« ألا رب يوم لك منهن صالح ... ولا سيما يوم بدارة جلجل »
« ويوم عقرت للعذارى مطيتى ... فياعجبا من رحلها المتحمل »
« فظل العذارى يرتمين بلحمها ... وشحم كهداب الدمقس المفتل »
« ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ... فقالت لك الويلات إنك مرجلى »
« تقول وقد مال الغبيط بنا معا ... عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل »
« فقلت لها سيرى وأرخى زمامه ... ولا تبعدينى عن جناك المعلل »
« فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ... فألهيتها عن ذى تمائم محول »
« إذا ما بكى من خلفها انصرفت له ... بشق وتحتى شقها لم يحول »
« ويوما على ظهر الكثيب تعذرت ... على وآلت حلفة لم تحلل »
« أفاطم مهلا بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى »

ولهذا اليوم حديث ورد فى كتب الأدب : ألا رب يوم إلى قوله ويوما على ظهر الكثيب فصل حكى فيه الشاعر بعض الوقائع التى كانت له أيام شبابه وهو كلام متلائم أخذ بعضه ببعض يجمعه غرض واحد كما تعرفه من سياق قصته فذكر يوم دارة جلجل وهو يوم عقر الناقة ويوم دخوله الخدر فعطف للاختلاف بالاضافة وليست أياما متعدده، وقصة هذا اليوم على ما حكوه عن الفرزدق . قالوا خرج الفرزدق يوما إلى ظاهر البصرة ليلة باتت السماء تكيف بها، فرأى آثار دواب ذاهبة إلى ناحية فقال إن هذه الآثار تخبر عن خروج قوم إلى ذلك الوادى وما أراهم إلا قد اجتمعوا لنزهة وطعام وشراب فعزم على أن يلحق بهم لعله يصيب معهم بعض مآربه، فانتهى به السير على تلك الآثار إلى غدير وإذا به نسوة قد نزعن ثيابهن ودخلن فيه ، فنزل عن بغلته وجلس على الثياب وقال : يوم كيوم دارة جلجل فتضاحك منه النساء وقالوا حدثنا بحديث ذلك اليوم فأخبر أن جماعة امرئ القيس عزموا يوما على الانتقال من موضع إلى موضع فسبق الرجال ليصلحوا المنزل ويمهدوا موضع الإقامة وتخلف النساء وما يكفيهن من الخدم فاستخفى امرؤ القيس حتى خرج على آثار النسوة حتى إذا كان نصف النهار وصلن إلى غدير فقال بعضهن لبعض لو نزلنا فى هذا الموضع فاسترحنا واستجممنا نشاطنا بالاستنقاع فى هذا الغدير فنزلن ونزعن ثيابهن ودخلن الماء وأدركهن امرؤ القيس فجلس على ثيابهن وحلف أنه لا يعطى واحدة ثيابها حتى تخرج وتأخذها بنفسها، فبعد أن امتنعن برهة وخفن ذهاب الوقت تتابعن فى الخروج واحدة بعد واحدة حتى بقيت عشيقته تقسم عليه وتستعطفه وتتذلل له وهو يأبى حتى خرجت فرآها مقبلة ومدبرة ، ثم قلن له حبستنا وأجعتنا فاغتنم ذلك منهن ورأى مكان الحيلة فى وصوله إلى حبيبته فقال : أتأكلن إذا نحرت ناقتى فقلن : نعم . فقام إليها وعقرها وجمع الخدم الحطب وأججوا نارا عظيمة

بجلس وجلسن يشتوون ويأكلون ويترامون ويتلاعبون حتى قضوا غرضهم من الطعام وقاموا لتميم السفر فتوزعوا متاع ناقته وبقي هو فركب مع حبيبته وكان هذا قصده . فهو يتعجب من تمام حيلته وبلوغ غرضه ثم حكى ماجرى بينه وبين حبيبته بعد ركوبه معها وأنه أخذ فى مغازلتها وملاعبتها .

على أن أسلوب امرئ القيس فى المعلقة كلها وفى كثير من شعره قد صيغ فى قالب قصصى يتعمد فيه ذكر وقائعه الغرامية وسرد تفصيلات قد تكون جافيـة ولكنها من ناحية تصوير الحقيقة تمشى مع ما يكتبه الروائيون الأفرنج اليوم .

ومن الغريب أنه إلى جانب هذا الأسلوب الغزلى العنيف فى صراحته (ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع) الذى يريد امرؤ القيس به أن يثبت أنه زير نساء لتلين له معشوقته فى تمنعها الطبيعى عنـد كل امرأة قد لجأ شاعرنا إلى أساليب أخرى فى منتهى اللباقة والحصافة فى مخاطبة المرأة واجتذابها فى حبائله .

ولا ريب أن مخاطبة النساء ومعاملتهن تتطلبان دقة الأسلوب السياسى وإحكام صنعة الكلام وصوغه فى قالب ناعم يدل على فهم نفسية المرأة وسرعة تقلبها وقوة حاستها وسهولة التأثير عليها وجموحها المفاجئ لأقل سبب ، قالب يحسن إدماج التلطف فى التهديد والتهديد فى التلطف والتلميح فى التصريح والتصريح فى التلميح ، قالب يتفنن شدة ولينا عند القطيعة والتلويح بها ، ويتشكل بالظروف والمناسبات فى ألوانها العديدة .

هذه الأساليب المتنوعة الدقيقة تجدها عند امرئ القيس وشعراء الحب عند العرب رغمـا من خشونة المعيشة وعدم توفر الحضارة التى تشحذ الذوق وتهذب الكلام والطباع وتزيد من الرقة والمرونة فيهما . ولعل ذلك يرجع إلى ذكاء العربى واختلاط النساء والرجال فى البادية إختلاطا لا يقـل عن اختلاط سكان باريس والمدن المتحضرة اليوم .

ولذلك نجد أوجه الشبه كثيرة فى الأدب الغزلى عند العرب والافرنج، ونجد فى كليهما فهما دقيقا لنفسية المرأة وتحليلات رائعة لا تترك شاردة أو لونا من ألوان الحب دون أن تحيط به وتتغلغل فى طياته ومداقه .

وهذا عمر بن أبى ربيعة بعث إلى محبوبته برسالة من الشعر، كالكتاب الذى نرسله اليوم بالبريد، وأراد فى ختام رسالته، وهو بيت القصيد، أن يعالج لحظة من تلك اللحظات الحاسمة فى الحب، لحظة الفتور فى العلاقات وإسراف المرأة فى صدودها وازدياد قلق المحب وعنائه من ناحية أخرى، لحظة أحدّ من الصراط وأدق من الشعرة فاصلة بين القطيعة والحب . فالكتاب الذى يرسله المحب ويريد به ردّا شافيا يوضح الموقف يستدعى من صاحبه أقصى المهارة السياسية لاظهار عدم المبالاة وعظم الاهتمام فى وقت واحد . وبعبارة أخرى، صدم المرأة صدمة شديدة وحفظ خط الرجعة لها فى الوقت نفسه لتتقهقر اليه بانتظام الى أن تعود المياه الى مجاريها ... ... وهذا كتاب عمر :

جنّ قلبى فقلت يا قلب مهلا لا تبدل بالحلم والعزم جهلا
حلفت أن ما أتاها يقين قلت لا تحلفى فديتك كلا
أسأل الله من يداك بصرم أن يرى فى الحياة ما عاش ذلا
فاتقى الله واقبلى العذر منى وتجافى عن بعض ما كان زلا
لم أرحّب بأن شحطتِ ولكن مرحبا إن رضيت عنا وأهلا
لا أخون الخليل ما عشت حتى ينقل البحر بالغرابيل نقلا
ثم قالت لا تعلمن بسرى يا ابن عمى أقسمت قلت أجَل لا
من أراد الفجور فى الودّ منا ضرب الله فى ذراعيه غلا
حدثينى فدتك نفسى وأهلى أتحبيننى كحبك عدلا
إن فى الصرم راحة من عناء ونعم فى الجواب أحسن من لا

وإن أكبر سياسى أو إخصائى فى الحب الحديث لايكتب خيرا من هذا، وقد نظر صاحبنا فى ذلك الى قول امرئ القيس وإن كان أسلوبه أرق وأكمل :

﴿ أماوى هل لى عندكم من مُعَرَّسٍ ... أم الصرم تختارين بالوصل نيأس ﴾ (١)
﴿ أبينى لنا إن الصريمة راحة ... من الشك ذى المخلوجة المتلبس ﴾ (٢)

وقد اهتدى امرؤ القيس منذ قرون الى علاج الحب ونسيانه واهتدى اليه (مارسل بريفوست) الكاتب الفرنسى الشهير الذى وقف حياته الأدبية على المرأة والحب، فذكر هذا العلاج فى ختام إحدى رواياته : وهو السفر والاغتراب؛ لأن تغيير

---

(١) عرس القوم وأعرسوا نزلوا فى سفر فى آخر الليل يقعون فيه وقعة للاستراحة ثم يرتحلون وعرس القوم فى النزول تعريسا إذا نزلوا أى وقت كان من ليل أو نهار والموضع معرس كما فى البيت «مالى بأرض الهوان من معرس سعة» . الصرم بفتح الصاد مصدر صرم بمعنى قطع بائنا وهجر والصرم بضم الصاد الاسم وهو القطيعة . تختارين أى تفضلين ولما كانت حروف الجر قد ينوب بعضها عن بعض فالباء هنا تنوب عن على .

(٢) أبينى : أوضحى . أصل الخلج الجذب والنزع واختلج الشىء فى صدى وتخالج احتكا مع شك وفى حديث عدى قال له عليه السلام لا يختلجن فى صدرك أى لا يتحرك فيه شىء من الريبة والشك وأصل الاختلاج الحركة والاضطراب ومنه حديث عائشة رضى الله عنها وقد سئلت عن لحم الصيد للحرم فقالت : إن يختلج فى نفسك شىء فدعه وفى الحديث ما اختلج عرق إلا ويكفر الله به ونوى خلوج بينة الخلاج مشكوك فيها قال جرير :

هذا هوى شغف الفؤاد مبرح ... ونوى تقاذف غير ذات خلاج

ابن سيده المخلوجة الطعنة التى تذهب يمنة ويسرة وأمرهم مخلوج غير مستقيم ووقعوا فى مخلوجة من أمرهم أى اختلاط ابن السكيت يقال فى الأمثال الرأى مخلوجة وليست بسلكى قوله مخلوجة أى تصرف مرة كذا ومرة كذا حتى يصح صوابه قال والسلكى المستقيمة وقال فى معنى قول امرئ القيس :

نطعنهم سلكى ومخلوجة ... كرك لأمين على نابل

يقول يذهب الطعن فيهم ويرجع كما ترد سهمين على رام رمى قال والسلكى الطعنة المستقيمة والمخلوجة على اليمين واليسار . تلبس بالأمر وبالثوب : اختلط يقال «تلبس حبه بدمى ولحمى» أى اختلط وتلبس عليه الأمر : اختلط واشتبه وأشكل .

المناظر والوجوه والهواء وما إليها يبعث على تجديد الانسان ، كما فطن الى ذلك أبو تمام فى إحدى كلماته الجامعة (فاغترب تتجدّد) وهذه الكلمة شائعة على ألسنة الافرنج الذين يصطافون كل عام (ou se renouvelle) كما كان يفعل العرب فى كل مصطاف ومرتبع . أقول إن هذا التجديد من أكبر العوامل التى تساعد على نسيان الحب وشفاء النفس من بُرَحائها .

وقد أشار امرؤ القيس إلى هذا الحل فى كثير من شعره، ولا شك أن ممارسته للحب والأسفار والتنقل هى التى وفقته إليه . قال :

(فدع ذا وسل الهم عنك بجَسْرة ذمول إذا صام النهار وهجرا)[1]

وقال :

(فعزيت نفسى حين بانوا بجسرة أمون كبنيان اليهودى خَيْفَقِ)[2]

وقد جرى كل الشعراء على طريقة امرئ القيس وتبعوه فيها .

ومعظم شعر امرئ القيس الغزلى عبارة عن رواية (وقائعه) الغرامية فى الطريق إلى الخدر ، وهو وإن كان يسهب كثيرا فى وصف الناحية المادية من الحب

(١) الجسر العظيم من الابل وغيرها وفى النوادر « رجل جسر » طويل ضخم وهى جسرة . الذمول الناقة التى تسير الذميل والذميل السير اللين إذا ارتفع السير عن العنق قليلا فهو التزيد وما فوقه الذميل ثم الرسيم قال الأصمعى « لا يذمل البعير يوما وليلة إلا مهرى » . وصام النهار : قام قائم الظهيرة واعتدل . هجر القوم : ساروا فى الهاجرة وهجر النهار اشتد حره .

(٢) الأمون المطية الموثقة الخلق المأمونة الكلال والعثار . الخيفق الفلاة الواسعة يخفق فيها السراب والخيفق السريع جدا من الخيل والنوق والظلمان . بنيان اليهودى اشارة الى السموءل وحصنه وقد تكون عامة كما ذكر بعض الشراح الذين قالوا : إن اليهود بعد تفرقها عن بيت المقدس فى عهد خرابه على يد طيطس القائد الرومانى ذهبت طائفة منهم الى جزيرة العرب فأقامت آطامها فى يثرب وحصونها فى تيماء وغيرها من مدن الحجاز وكانت من أوثق ما شيد من البنيان .

ومحاسن جسم المرأة (وقد نضّت لنوم ثيابها) فانه ينظر أحيانا إلى المرأة نظرة المرحوم اسماعيل باشا صبرى حين يقول :

واكشفى عن جسمك الثوب بين   للملا تكوين سكان السماء
أنت روحانية لا تدعى   أن هذا الجسم من طين وماء

فمادة المرأة روحانية وطينتها مشرقة يشع النور فى أرجائها ، وإلى صفاء جوهرها نظر امرؤ القيس حين يقول :

« يضىء الفراش وجهها لضجيعها   كمصباح زيت فى قناديل ذبال[1] »

وحين يقول :

« وتضحى فتيت المسك فوق فراشها   نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل »
« وتعطو برخص غير شثن كأنه   أساريع ظبي أو مساويك أسحل »
« كبكر المقاناة البياض بصفرة   غذاها نمير الماء غير المحلل[2] »
« تضىء الظلام بالعشاء كأنها   منارة ممسى راهب متبتل[3] »

---

(١) الذبالة الفتيلة والذبال بتشديد الباء وتخفف جمع ذبالة .

(٢) قال الزوزنى : « البكر من كل شىء مالم يسبقه مثله والمقاناة الخلط يقال قانيت بين الشيئين اذا خلطت أحدهما بالآخر والمقاناة فى البيت مصوغة لمفعول دون المصدر والنمير الماء النامى فى الجسد والمحلل ذكر أنه من الحلول وذكر أنه من الحل ثم أن ثلاثة فى تفسير البيت ثلاثة أقوال أحدها أن المعنى كبكر البيض التى قوبل بياضها بصفرة » يعنى بيض النعام وهى بيض تخالط بياضها صفرة يسيرة شبه لون العشيقة بلون بيض النعام ثم رجع الى صفتها فقال غذاها ماء غير عذب لم يكثر حلول الناس عليه فيكدره ذلك يريد أنه عذب صاف ...

(٣) المنارة موضع النور يقال « هدم فلان منار المساجد » ومنه منارة المراكب والمسرجة والمئذنة .

متبتل : متعبد .

فهو فى البيتين الأخيرين ينظر الى صفاء بشرتها وجمال ضيائها ، وقد جمع بين النور والتبتل فى معابد الحب ومنازله :

﴿ الى مثلها يرنو الحليم صبابة إذا ما اسبكرت بين درع ومجول ﴾
﴿ تسلت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادى عن هواها بمنسل ﴾

فالمرأة كانت تملأ بحركتها وصوتها وبهجتها الدار والحى :

﴿ وقد عمر الروضات حول مخطط إلى اللخ مرأى من سعاد ومسمعا ﴾

ومن ملاحظاته الدقيقة فى بكاء المرأة وهو أحد أسلحتها للهيمنة على الرجل :

﴿ وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل ﴾

وفى أخلاق المرأة بصفة عامة، وقد سبق ذكره :

﴿ أراهن لا يحببن من قل ماله ولا من رأين الشيب فيه وقوسا ﴾

وفى لين المرأة، بعد إبائها وانهيار مقاومتها بعد تمنعها :

﴿ فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذى شماريخ ميال ﴾
﴿ وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا وَرُضْتُ فذلت صعبةٌ أىَّ إذلال ﴾

نظر بشار إلى هذا المعنى فقال :

لين النساء إلى مياسرة والصعب يركب بعد ما جمحا

وفى نظرتها الساحرة وجيدها :

﴿ نظرت إليك بعين جازئة حوراء حانية على طفل ﴾
﴿ فلها مُقَلَّدها ومقلتها ولها عليه سراوة الفضل ﴾

أخذ هذا المعنى وزاد عليه من قال :

فعينك عيناها وجيدك جيدها ولكن عظم الساق منك دقيق

ومن رائع قوله ، وقد جرى مجرى الأمثال :

(وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مُغَلَّب)

وقوله يصف موت الحب فى فؤاده :

(وتبرجت لتروعنا فوجدت نفسى لم تُرع)

وقد توهم شارح أن الحبيبة لم تستفزه لاعتياده منها حالة التبرج ، وهو لا يريد أكثر من أنه سلاها فأصبحت لا تحرك قلبه ، فقد أشار إلى حب قديم له فى قصيدة أخرى فقال :

(وكان لها فى سالف الدهر خلة يسارق بالطرف الخباء المسترا)

(إذا نال منها نظرة ريع قلبه كما ذعرت كأس الصبوح المخمرا)

وقد لا يمكن التمييز بين أسلوبه وبين أسلوب عمر بن أبى ربيعة حين يقول مثلا :

(تقول وقد جردتها من ثيابها كما رعت مكحول المدامع أتلعا)

(وجدك لو شيء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا)

(تصدّ عن المأثور بينى وبينها وتدنى علىّ السابرىّ المضلعا)

(إذا أخذتها هِزَّة الروع أمسكت بمنكب مقدام على الهول أروعا)

وقد استعمل عمر بن أبى ربيعة أسلوب امرئ القيس القصصى ، وهو قريعه فى الخبرة بالنساء ومعرفتهن ، قال عمر :

تَبَالَهْنَ بالعرفان لما رأيننى وقلن امرؤ باغ أكَلَّ وأوضعا

وقربن أسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعا كلما قسن إصبعا

ومن آيات عمر :

وقولا لها ليس الضلال أجازنا ولكننا جئنا لنلقاكم عمدا

ولكن امرأ القيس أوسع محيطا وأعلى أفقا ، وهو يذكرنا بالشريف الرضى أحيانا :

(لمن طلل داثر آيه تقادم فى سالف الأحرس)
(وتنكره العين من حادث ويعرفه شغف الأنفس)

وقد أشار الشريف من بعد إلى هذا المعنى بقوله :

وتلفتت عينى ومذ خفيت عنها الطلول تلفت القلب

ومن شعره المضىء العالى قوله :

(تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال)

وهذا أروع ما قيل فى تصوير إشراقة المرأة فى قلب المحب النائى على بعد الشقة بينهما .

ومن مأثور وصفه فى بلوغ مضجع الحبيبة متخفيا بالليل حتى لا يتزعج الأهل والرقباء :

(سموت اليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال)

وقوله فى المضاجعة من نفس القصيدة :

(إذا ما الضجيج ابترها من ثيابها تميل عليه هونة غير مجبال)
(كحقف النقا يمشى الوليدان فوقه بما احتسبا من لين مس وتسهال)

وبالجملة لم يكن امرؤ القيس فى حياته وشعره رجل مغامرات نسائية ولهو ولعب فحسب ، بل كان رجل عاطفة ووجدان فلا يجوز أن يشغلنا استهتاره فى شبابه :

(أغادى الصبوح عندهن وفرتنا وليدا وهل أفنى شبابى غير هر)

عن أثر تلك الذكريات الشاحبة في حياة الشاعر، وقد كانت لامرئ القيس في الصداقة نظرات صادقة :

﴿ اذا قلت هذا صاحب قد رضيته وقرت له العينان بدلت آخرا ﴾

﴿ كذلك جدى ما أصاحب صاحبا من الناس إلا خانني وتغيرا ﴾

والواقع أنه كان يعلم أن الحب والصداقة كلاهما سريع الانكسار ولكنه كان يلهو لهو الحكيم الذي يعلم أن الحية كامنة في الرياض وأن عمر الورد قصير ... ... أليس هو القائل :

﴿ تمتع من الدنيا فانك فان من النشوات والنساء الحسان ﴾

والذي يقول :

﴿ أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب ﴾

و بالحب و بالصداقة وبكل ما نمر به من الزينات والبهرج في هذه الحياة .

الفصل السادس

الصناعة والبيان

قلنا إن امرأ القيس يمتاز بقوة الفطرة والطبع وما من شك عندى فى أن شعراء الجاهلية كانوا من أكثر شعراء العالم فطرة وسليقة لأنهم كانوا أقدرهم على ارتجال الشعر ، وقد نظم المرحوم الكاظمى ، وهو أطبع الشعراء المعاصرين ، أربعين بيتا من قصيدة ارتجلها أمامى بيتا بيتا، وكان يترنم ويعيد إنشاء ما نظمه ثم يضيف البيت الجديد حتى أتمها ليومه، وكانت تبلغ المائة وخمسين بيتا . فاذا كان هذا شأن الكاظمى وهو من المتأخرين الذين يعيشون فى جو يقيد أجنحة الشعر فما بالك بالشعراء الأولين الذين كانوا يحدون فى البادية وجمال طبيعتها وصفائها واختلاف مناظرها ونباتها كل ما يساعد على قول الشعر ويوحى .

وإذا أضفنا الى ذلك أن امرأ القيس قد وشجت عروقه الى عرق ثرى نجد وأرض اليمن أى الى معدن الفصاحة ومعدن الحضارة تبين لنا أثر البيئة فى تكوين تلك الشخصية القوية .

”كانت نجد أطيب بلاد العرب بقعة فى مناخها وهوائها وطبيعة أرضها ، وكانت فيها معادن الفصاحة العربية الخالصة ، والشعر البدوى الذى لم يكتسب بشىء من العجمة ، وقد سارع الفساد الى لغة العرب بعد ظهور الاسلام واختلاط العرب بالعجم، فلم تثبت العربية الفصحى فى بلد من بلاد العرب أمام ذلك الفساد ما ثبتت بين نجد وأهلها ، وخصوصا جبل عكاد الذى ثبتت العربية بين أهله الى آخر القرن الرابع الهجرى .

"وكان يوجد بنجد من القبائل العربية طيئ فى شمال نجد بجبليها أجأ وسلمى ، وبكر وتغلب بعالية نجد، وعنزة وأسد فى شمال وادى الرمة، وهوازن وسليم غربى نجد، وغطفان وعبس وذبيان شماليها، وتميم شرقيها .

"ويُذكر أكثر هذه القبائل فى القبائل العربية التى تعدّ أفصح قبائل العرب . وقد ذكر علماء اللغة أن أفصح القبائل ممن أخذت اللغة عنهم قيس وتميم وأسد والعجز من هوازن الذين يقال لهم عليا هوازن ويقول فيهم أبو زيد : أفصح الناس سافلة العالية وعالية السافلة ، يعنى عجز هوازن وهم خمس قبائل أو أربع : سعد ابن بكر، وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف . وأما أهل العالية فهم أهل المدينة ومن حولها ومن يليها وما دنا منها، ولم يكونوا فى الفصاحة مثل أهل السافلة .

" وكما يُذكر أكثر قبائل نجد فى أفصح قبائل العرب يذكر كثير منها فى قبائل العرب الخُلّص الذين كانت بلادهم من أعظم مواطن العربية الخالصة . ومن تلك القبائل قبائل كانت تسمى الأرحاء لأنها كانت تحرز دورا ومياها لا تنزح عنها بل كانت تدور فيها كالأرحاء على أقطابها، ومن قبائل الأرحاء تميم بن مرة وأسد بن خزيمة وكلب بن دبرة وطيئ بن أُدد[1]" .

أضف الى ذلك أن طبيعة نجد الجبلية وبعدها عن متناول الأطماع والتدخل وقوة العصبية فى أهلها الأشداء جعلها أكثر البلاد محافظة على كيانها .

أما اليمن التى نزحت منها كندة فقد ذكر الهمدانى[2] حضارتها القديمة وقصورها وسدودها ... ... وإنا نكتفى بالإشارة الى مأرب وهى مسكن سبأ الذى قال الله

---

(١) زعامة الشعر الجاهلى بين امرئ القيس وعدى بن زيد تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى .

(٢) الإكليل، الجزء الثانى تأليف أبى محمد الحسن المعروف بابن الحائك الهمدانى، برنستن ١٩٤٠

فيـه : (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) وهى كثيرة العجائب ، والجنتان عن يمين السدّ ويساره وهما اليوم غامرتان وإنما عفتا لما اندحق السدّ فارتفعتا عن أيدى السيول .

قال الحسن الهمدانى : وجدت فى أحدهما عريق أراك ، وفى أصله جذع نخلة أسود قد كبست باقيه السواقى ، وأما مقاسم الماء من مذاخر السدّ فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس . ورأيت بناء أحد الصدفين باقيا وهو الذى يخرج منه الماء قائما بحاله . وإنما وقع الكسر فى العرم ، وقد بقى فى العرم شىء مما يصالى الجنة اليسرى . قال تبارك وتعالى : (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل) . قيل الخمط الأراك والأثل الطرفاء ... ... وبها من الأراك ما ليس ببلد ومن الحمام المطوق فى الأراك ما يجل عن الصفة وكان السيل يجمع من أماكن كثيرة ومواضع جمة باليمن ، وفيها يقول الأعشى :

ففى ذاك للمؤتسى أسـوة ومارب قفًّا عليها العـرم
رخام بنـاه له حمـير اذا جاء ماؤهـم لم يرم
فأروى الحروث وأعنابهم على ساعـة ماؤهم ينقسم
فعاشـوا بذلك فى غبطة فجارفهـم جارف منهزم
فطار القيـول وقيّالهـا بيهماء فيهـا سراب يطم

ومن قصورها قصر سلحين الذى ذكره علقمة بن ذى جدن (وهو غير علقمة ابن عبدة ... ...) :

لو رأيت القشـيب بعـد بهاء خاويا هُدّ بعضه فوق بعض
وأقاويل مأرب قـد تـولوا بعد عقد الأمور منهم ونقض

وقد كان امرؤ القيس نجديا ويمنيا حضريا وبدويا ، كان كل هذا وهو أول شاعر جاهلى ظهر أثر الحضارة فى أسلوبه من ناحية اختيار اللفظ وجمال التعبير وقوة النحت والرصف والتنغيم ، وقلّ أن تجد له لفظة نافرة أو نسجا مقلقلا .

ولعل أكبر أثر للبداوة فى شعره هو فقدان الوحدة فى القصيدة وعدم بناء الموضوع بناء محكما كما يبنيه الشعراء المتأخرون من الإفرنج خاصة ، وذلك راجع إلى طبيعة العربى التى لا تألف البناء وإلى نزعته الفردية الاستقلالية ، (individualisme) ، فهذه النزعة هى التى جعلت من كل بيت وحدة على حدتها مستقلة عن وحدة البيت الآخر دون النظر الى الوحدة العامة فاهتم الشعراء بجمال المطلع مثلا وهو أول بيت القصيدة أكثر من اهتمامهم بجمال بناء القصيدة ووحدتها وأصبح مقياس عظمة الشاعر أفضل بيت قاله فى الغزل أو الهجاء لا أفضل قصيدة ، واذا وجدت صلة بين أبيات أو قطع القصيدة الواحدة فهى صلة واهية غير وثيقة كالصلة التى تربط بكاء الديار والتشبيب فى أول القصيدة بالوصف والمديح وما شاكلهما .

على أن هذه النزعة الانفرادية كانت تثب بالبيت والبيتين الى أعلى قمم الشعر ، ولا أظن شعرا فى العالم يحوى من الأمثال الرائعة التى يتداولها الناس ما يحويه الشعر العربى ، وقد طرب القدماء لأمثال امرئ القيس التى لا حصر لها وقد ذكرنا طائفة منها فى سلك بحثنا :

﴿ ألا إنما الدهر ليال وأعصر وليس على شىء قويم بمستمر ﴾

* * *

﴿ وقد طوّفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب ﴾

*
* *

(إذا المرء لم يخزن عليه لسانه ٭ فليس على شيء سواه بخزان)

*
* *

(كذلك جدى ما أصادف صاحبا ٭ من النـاس إلا خانني وتغـيرا)

*
* *

(والله أنجــح ما طلبت بـــه ٭ والــبر خـير حقيبـة الرحــل)

ولا شك فى أن أسلوب امرئ القيس أقرب أساليب العرب الى أسلوب القرآن وبيانه فهــو أفصح الأساليب وأنضرها عودا وأصــفاها ماء ، وله من التعبيرات ما يتدله منه اللب ويحير :

(اذا ركبوا الخيــل واسـتلاموا ٭ تحرقت الأرض واليــوم قُـر)

*
* *

(بحنيــة قــد آزر الضالَ نبتها ٭ مجـر جيــوش غانمين وخيب)

وآيات ذلك النفاث الساحر لا تعد ... ، وقـد ذكر ابن عباس وغيره ما جرى على لسان امرئ القيس من استعمالات القرآن الكريم وألفاظه، منها :

(أبت أجا أن تسلم العام جارها ٭ فمن شاء فلينهض لها من مقاتل)

أى أبت القبيلة التى تحل أجا . قال تعالى : (واسأل القرية التى كنا فيها) يعنى أهل القرية .

(وتــبرجت لــتروعنــا ٭ فوجــدت نفسى لم تــرع)

وقال تعالى : (غير متبرجات بزينة) . والتبرج هو أن تبدى المرأة زينتها .

(وأضحى يسح المـاء حول كتيفة ٭ يكب على الأذقان دوح الكنبهل)

وقال تعالى : (يخرون الى الأذقان سجدا) .

﴿ تظل الطير عاكفة عليهم وتنترع الحواجب والعيونا ﴾

العاكف المقيم . قال تعالى : (سواء العاكف فيه والباد) .

﴿ ولم يرنا كالئ كاشح ولم يفش منا لدى البيت سر ﴾

والكالئ الحافظ والمراقب . قال تعالى : (قل من يكلؤكم) .

﴿ خفاهنّ من أنفاقهنّ كأنما خفاهنّ ودق من عشيّ مُجَلِّبِ ﴾

خفاهن يعني أظهرهنّ . قال تعالى : (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) .

وقال الجرجاني في قول امرئ القيس (ما حديث الرواحل) من قوله :

﴿ دع عنك نهبا صيح في حجراته ولكن حديثا ما حديث الرواحل ﴾

تفخيم وتهويل مثل قوله تعالى : (الحاقة ما الحاقة) .

وقصة هذا البيت أن امرأ القيس نزل على خالد بن سدوس بن أصبغ النبهاني فأغار عليه باعث بن حويص الجديلي الطائي في رجال معه فذهبوا بإبله ، فلما علم ذلك امرؤ القيس أخبر جاره خالدا ، فقال له خالد : أعطني رواحلك ألحق بها القوم فأرد إبلك ، فأعطاه رواحله فركبها خالد ، فلما أدركهم قال : يا بني جديلة أغرتم على جاري فردّوا اليه إبله فقالوا : ما هو لك بجار فقال : بلى . والله ما هذه الإبل التي معكم إلا كالرواحل التي تحتي ، فقالوا : أكذاك ؟ فرجعوا اليه فأنزلوه عنها وذهبوا بها أيضا ، فلما عاد الى امرئ القيس بهذه الحال قال :

﴿ دع عنك نهبا صيح في حجراته ولكن حديثا ما حديث الرواحل ﴾ (١)

---

(١) الحجرة : الناحية ج حجرات ، وحجر وحواجر ، (دع عنك نهبا صيح في حجراته) ، مثل يضرب لمن ذهب من ماله شيء ثم ذهب بعده ما هو أجل منه .

وهذا أعلى مثل عربي جمع بين الحكمة والخيال فى ظرف من نور ، وكان قد تحوّل عن خالد فهجاه ببيت من الأدب الرفيع :

﴿ وأعجبنى مشى الحزقّة خالدٍ   كمشى أتانٍ حلئت فى المناهل ﴾

ونزل على جارية ابن مر الثعلبي فأجاره وأكرمه فقال يمدحه ، وهـذا المديح كذاك الهجاء من ماء واحد :

﴿ أبت أجأ أن تُسلم العام جارَها   فمن شاء فلينهض لها من مقاتل ﴾
﴿ تبيت لبُـونى بالقُرَيَّةِ أُمَّنَـا   وأسرحها غبـابا كناف حائل ﴾
﴿ بنو ثعـل جـيرانها وحماتها   وتمنـع من رماة سعد ونابل ﴾
﴿ تلاعب أولاد الوعول رباعها   دوين السماء فى رؤوس المجادل ﴾

أبت أجأ أن تسلم العام جارها ... ... والله لا أدرى أهـذه الموسيق المطمئنة الساحرة أوقع فى النفس أم موسيق (شومان) ؟ وتلك الموسيق المضطربة الفخمة الباكية بألف عين ووترق (قفا نبـك من ذكرى حبيب ومنزل ...) أم موسيق ڤاجنر وهو يشيع جنازات الإنسانية ويبكيها ؟

الواقع أن الموسيق الكبرى والنحت والتصوير اذا كانت تنقص العرب فإننا نجـدها فى شعرهم ، وهى ظاهرة محسوسـة بصفة خاصـة فى شعر امرئ القيس فى الجاهليين وفى شعر البحترى فى الإسلاميين ، وفى ذلك الدليل القاطع على أن استعداد العرب الفطرى لا يقل عن استعداد أمة من الأمم التى كملت حضارتها واستقرت .

فاذا طربنا لشعر امرئ القيس وأخذتنا منه تلك الروعة الساحرة ، فلأن ذلك الشعر مؤلف من عناصر يصعب تحليلها وتفصيلها وإن كنا نحس بها ، وهل يعلل جمال الوجه باستواء الأنف واتساع العين وغلظ الشفاه أو رقتها ؟

ليس للجمال حدود ومقاييس ، وقد يشع سحر البيان من الكلمة والبيت والقصيدة فيخفى ما وراءه من إجهاد وصنعة ، والطبع مهما صفا وغزر فلا غناء له عن الصنعة .

قال امرؤ القيس يصف خيلا :

(سالت بهنّ نطاع فى رأد الضحى والأمعزان وسالت الأوداء)
(يخرجن من خلل الغبار عشية بالدارعين كأنهن ظباء)

لو حللت هذا الشعر من ناحية اللغة وقوة التصوير لم تجد فيهما شيئا يستحق الذكر . نطاع . قال أبو منصور : ماء فى بلاد بنى تميم وقد وردتها وهى ركيا عذبة الماء غزيرته ، والأمعزان مثنى الأمعز وهو المكان الصلب ولعلها اسم مكان ، والأوداء الأماكن المعوجة من الأود ، والدارعون الذين لبسوا الدروع وهم الفرسان .

يقول أن الخيل ملأت هذه الأماكن و إنها تخرج من خلل الغبار وهى تجرى بالعشية كالظباء على أن هذا الشعر وما به من تصوير متناه فى بساطته وسهولته رائع لأن عليه مسحة من السحر (على وجه مى مسحة من ملاحة ...) .

و إذا قال امرؤ القيس :

(أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام و بالشراب)
(عصافير وذبان ودود وأجرأ من مُجَلِّحَة الذئاب)
(فبعضَ اللوم عاذلتى فأنى ستكفينى التجارب وانتسابى)
(إلى عِرق الثرى وشجت عروقى وهذا الموت يسلبنى شبابى)

وقال :

(فلله عينا من رأى من تفرق أشد وأنأى من فراق المحصب)
(فريقان منهم قاطع بطن نخلة وآخر منهم جازع نجد كبكب)

وقال :

﴿ عنيف بتجميع الضرائر فاحش شتيم كذلق الزُّجِّ ذى ذمرات ﴾

﴿ ويأكلن بُهْمَى جَعدة حبشية ويشربن برد المـاء فى السبرات ﴾

﴿ فأوردها ماء قليـلا أنيسـه يحاذرن عمرا صاحب القُتَرات ﴾

وقال :

﴿ ولو عن نشا غيره جاءنى وجرح اللسان كجرح اليـد ﴾

وقال :

﴿ تراءت لنـا بين النقا وعنيزة وبين الشجى مما أحال على الوادى ﴾

وقال :

﴿ وخليـل قـد أفارقـه ثم لا أبكى على أثـره ﴾

﴿ وابن عـم قـد تركـت له صفو ماء الحوض عن كدره ﴾

﴿ وابن عـم قد بجحت به مثـل ضـوء البدر فى غرره ﴾

﴿ وحديث الركـب يوم هنا وحديث مـاعـلى قصـره ﴾

وقال :

﴿ ثوى عند الوَدِيَّة جوف بُصْرَى أبو الأيتام والـكَلِّ العجاف ﴾

﴿ فمن يحمى المصاف إذا دعاه ويحمل خُطة الأَنَس الضِّعاف ﴾

وقال :

﴿ تنـكرت ليـلى عن الوصـل ونأت ورث معاقد الحبـل ﴾

﴿ وَلَوَوا متاعهـم وقد سـئلوا بذل المتـاع فَضَنَّ بالبـذل ﴾

وقال :

﴿ نطعنهـم سُلْكَى ومخـلوجة كرك لأمين على نابـل ﴾

وقال :

﴿ بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه　　وأيقن أنا لاحقـان بقيصرا ﴾

﴿ فقلت له لا تبك صاح فإنمـا　　نحاول ملـكا أو نموت فنعذرا ﴾

وقال :

﴿ كأنى لم أسمر بدمُّون مرة　　ولم أشهد الغارات يوما بعندل ﴾

فإننا يخيل إلينا أننـا نسمع قطعا غنائية مختلفـة البحور والأوضاع كلها شجى وحنين ، وإذا كان هزجها حزينا فلا غرابة فإن الشعر والموسيقى أعلى وأدق وأرق وأصفى تعبير للحيـاة والحياة لحمتها وسـداها الحزن ؛ ومن هنا يتبين السبب الذى من أجله تعلو نفوسنا على أجنحة الأثير عند سماع قطعة شعرية أو موسيقية وتسبح فى عوالم أخرى وفى جنات عدن .

ولهذا الشعر بلاغته الخاصة التى لا يفهمها أئمـة اللغة والنحو . وقد بينا من قبـل أثر حرف تصغير فى إيجاد صورة رائعة لمنظر من أجل مناظر الطبيعة (دُوين السماء ...) . والآن نذكر حرفا آخر هو حرف عطف ، لم تأت به أجرومية النحويين ولكن أجرومية الشعر والموسيقى ...

﴿ قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل ﴾

﴿ فتـوضح فالمقراة لم يعف رسمها　　لمـا نسجتها من جنـوب وشمأل ﴾

قال البغـدادى : ” إن الفـاء الداخلة على الأماكن بمعنى إلى أى منازل بين الدخول إلى حومل إلى توضح إلى المقراة ، وهذا أحد جوابين أجاب بهما الشارح عن إشكاله وهو أن الفاء تقضى التفريق وهو مناف لمـا تفهمه بين من الاجتماع لأن البينة نسبة وأقل ما تستدعيـه منتسبان وأنت إذا قلت المـال بين زيد وعمرو فقد أفدت احتواءهما عليـه واجتماعهما على ملكه ولهـذا الإشكال أنكر الأصم

ومن تبعه رواية الفاء وقال إنما الرواية وحومل وتوضح والمقراة، قال العسكرى فى كتاب التصحيف تكلم الناس فى قوله بين الدخول فحومل . قال أبو إسحاق الزيادى الرواية بين الدخول وحومل ولا يكون فحومل لأنك لا تقول رأيتك بين زيد فعمرو وهذا سمعه الزيادى من الأصمعى فسألت ابن دريد عن الرواية فحكى ما قال الأصمعى ولم يزد عليه ، فسألت أبا بكر محمد بن على بن اسماعيل فقلت . قال الأصمعى : لا يجوز أن تقول رأيته بين زيد فعمرو فكان ينكر بين الدخول فحومل فأملى على الجواب فقال : أن لكل حرف من حروف العطف معنى قالوا وتجمع بين الشيئين نحو قام زيد وعمرو فجائز أن يكونا كلاهما قاما فى حالة واحدة وأن يكون قام الأول بعد الثانى وبالعكس والفاء إنما هى دالة على أن الثانى بعد الأول ولا مهلة بينهما، فقال الأصمعى وكان ضعيفا فى النحو غير أنه كان ذا فطنة أطبقت الرواة على بين الدخول وحومل ولا يجوز فحومل لأنه ليس يقصد أن يكون بيانا لشيئين أحدهما بعد الآخر ثم يكون الشىء بينهما إنما يريد أنهما لا يجتمعان وهو بينهما كما تقول زيد بين الكوفة والبصرة ولا تقول فالبصرة فقد أجاد فطنة انتهى . وقد أجاب الشارح على تقدير صحة رواية الفاء بجوابين : أحدهما أنها بمعنى إلى الدخول فى الأماكن فلا تدل على الترتيب المقتضى للتفريق وهذا الجواب مركب من قولين لأن الذى يقول أن الفاء بمعنى إلى لا يشترط فى مدخولها أن يكون مكانا ومن ذكر دخولها على المكان لا يقول أنها بمعنى إلى وإنما هى عنده بمعنى الواو لمطلق الجمع ولا تفيد ترتيبا والأول قول بعض البغداديين . قال العسكرى : قال بعض البغداديين أراد قفا نبك بين الدخول إلى حومل إلى توضح إلى المقراة فالفاء فى موضع إلى فاضمر ما مع بين كقولك هو أحسن الناس قرنا فقدما ولم يضمر بين فأراد فأبكيا هذا إلى ذا انتهى . ونقله ابن هشام أيضا فى المغنى فقال : وقال بعض

فهـرس الكتاب

* * *

كَمُلَ طبع "كتاب الشوامخ : (١) امرؤ القيس" بمطبعة دار الكتب المصرية
فى يوم السبت ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٦١ (١١ مارس سنة ١٩٤٤) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصـرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٣/١٢/٢٠٥٠)